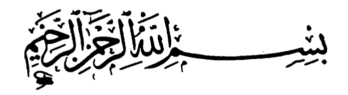
بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٤١ -

عَمْرُو بنُ العَاصِ

رضي الله عنه



الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ المُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ عَمْرَو بنَ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ وَجَّهَ إِلَيْهِمُ المُغْرِضُونَ أَخْطَرَ سِهَامِهِمُ المَسْمُومَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لِمَكَانَتِهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَلِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ، وَلِشَجَاعَتِهِ وَدَهَائِهِ، والحَاجَةِ إِلَيْهِ سَاعَةَ المُلِمَّاتِ، وَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ القُدْرَةُ عَلَى حَلِّ مَا أَشْكَلَ مِنْهَا، وإِمْكَانِيَّةُ الخَلاَصِ مِنْ مُعْضِلِهَا. وَلاَ تُوَجَّهُ السِّهَامُ لِلرِّجَالِ العَادِيينَ الَّذِينَ يَسِيرُونَ مَعَ النَّاسِ إِنْ سَارُوا، وَيَقِفُونَ حَيْثُ تُحَطُّ الرِّحَالُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَمْرُو عَظِيماً لَمَا وَجَّهَ إِلَيْهِ المُغْرِضُونَ سِهَامَهُمْ لِيَنَالُوا مِنْهُ. وَلَعَلَّ هَذِهِ السِّهَامَ قَدْ أَثَّرَتْ فِي نُفُوسِ الكَثِيرِينَ حَتَّى زَادُوا عَلَيْهَا افْتِرَاءً ثُمَّ شَاعَتْ فِي

أَوْسَاطِ العَامَّةِ وَلَمْ يَتصَدَّ لَهَا الخَاصَّةُ ـ مَعَ الأَسَفِ ـ وَرُبَّمَا يَعُودُ قُبُولُ بَعْضِ هَذِهِ الشَّائِعَاتِ إِلَى:

١ ـ تَأَخُّرِ إِسْلاَمِهِ وَمُشَارَكَتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي قِتَالِ المُسْلِمِينَ.

٢ ـ ذَهَابِهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ لإِعَادَةِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الحَبَشَةِ.

٣ ـ بُرُوزِهِ فِي المَرْحَلَةِ الَّتِي انْقَسَمَتْ فِيهَا الأُمَّةُ وَظُهُورِهِ مَعَ رُؤَسَاءِ الفِئَةِ الَّتِي أَخْطَأَتْ فِي اجْتِهَادِهَا. وَقَدْ نُسِجَتْ رِوَايَاتٌ أَكْثَرُهَا غَيْرُ صَحِيحٍ تُصَوِّرُ هَذِهِ الفِئَةَ بِالتَّلاَعُبِ فِي مُقَدَّرَاتِ الأُمَّةِ.. وَتَتَّهِمُهَا بالمُرُوق مِنَ الدِّينِ.

وَهَذِهِ هِيَ أَكْثَرُ الأَدْوَارِ الَّتِي بَرَزَ فِيهَا إِضَافَةً إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي فَتْحِ الشَّامِ، وَفَتْحِ مِصْرَ.

وَهُنَاكَ حَادِثَتَانِ أُخْرَيَانِ هُمَا:

١ ـ اجْتِهَادُهُ فِي أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ قَدْ جَاءَهُ مَدَداً وَدَعْمَاً هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ أَمْثَالِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، وَفِي هَذَا فَخْرٌ لَهُ لَيْس بَعْدَهُ فَخْرٌ فِي أَنْ يَكُونَ أَمِيراً عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وأَبِي عُبَيْدَةَ، وَعُمَرَ، لِذَا فَقَدْ حَرَصَ عَلَى تِلْكَ الإِمْرَةِ.

٢ ـ حَادِثَةُ ابنُ القِبْطِيِّ وَضَرْبِ ابنِ عَمْرٍ لَهُ، فَإِنَّ مَوْقِفَ

عَمْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِيجَابِيًّاً، وَلَمْ يَعْتَرِضْ، بَلْ أَبْدَى كُلَّ مُوَافَقَةٍ وَرِضَىً، غَيرَ أَنَّ سِيَاقَ الحَادِثَةِ يُحَمِّلُ عَمْرَاً تَصَرُّفَ ابْنِهِ، وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ فَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

هَذِهِ أَهَمُّ الأَحْدَاثِ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلْأَحْدَاثِ، والتَّفْسِيرِ الإِسْلاَمِيِّ لَهَا.

نَسْأَلُ اللَّهَ العَلِيَّ القَدِيرَ أَنْ يُلْهِمَنَا الحَقَّ والصَّوَابَ لِلتَّرْجَمَةِ وَالتَّعرِيفِ الدَّقِيقِ لاِبْنِ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ المُتَّقِينَ.

هُوَ عَمْرُوُ بنُ العَاصِ بنِ وَائِلِ بنِ هَاشِمِ بنِ سُعَيِّدِ بنِ سَهْمِ بنِ عَمْرِ بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيّ القُرَشِيُّ، مِنْ قَبِيلَةِ سَهْمِ إِحْدَى بُطُونِ قُرَيْشٍ. كَانَ أَبُوهُ العَاصُ بنُ وَائِلِ شَيْخَ سَهْمٍ، وَأَحَدَ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ. أَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ النَّابِغَةُ مِنْ قَبِيلَةِ عَنَزَةَ.

عُرِفَ بِحَصَافَةِ الرَّأْيِ، وَالدَّهَاءِ، والحِنْكَةِ، والقُدْرَةِ عَلَى حَلِّ المُشْكِلاَتِ، والخُرُوجِ مِنَ المَآزِقِ.

وُلِدَ عَمْرُو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ والأَرْبَعِينَ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلاَةِ والسَّلاَمِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثَمَانِ سَنَوَاتٍ، وَتَأَخَّرَ فِي إِسْلامِهِ حَتَّى أَوَائِلِ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: وَمَا أَبْطَأَ بِكَ عَنِ الإِسْلاَمِ وَأَنْتَ أَنْتَ فِي عَقْلِكَ. قَالَ: إِنَّا كُنَّا مَعَ قَوْمٍ لَهُمْ عَلَيْنَا تَقَدُّمٌ، وَكَانُوا مِمَّنْ

يُوازِي خلُوبُهُمُ الخبَالَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ فَلُذْنَا بِهِمْ، فَلَماَّ ذَهَبُوا وَصَارَ الأَمْرُ إلَيْنَا نَظَرْنَا وَتَدَبَّرْنَا فَإِذَا حَقٌّ بَيِّنٌ فَوَقَعَ فِي قَلْبِيَ الإِسْلاَمُ، فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ مِنِّي مِنْ إِبْطَائِي عَمَّا كُنْتُ أُسْرِعُ فِيْهِ مِنْ عَوْنِهِمْ عَلَيْهِ فَبَعَثُوا إِلَيَّ فَتىً مِنْهُمْ فَنَاظَرَنِي فِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أُنْشِدُكَ اللَّهَ رَبَّكَ وَرَبَّ مَنْ قَبْلِكَ وَمَنْ بَعْدِكَ أَنَحْنُ أَهْدَى أَمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، قَالَ: نَحْنُ أَهْدَى، قُلْتُ: فَنَحْنُ أَوْسَعُ عَيْشاً أَمْ هُمْ، قَالَ: هُمْ. قُلْتُ: فَمَا يَنْفَعُنَا فَضْلُنَا عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَضْلٌ إِلاَّ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ أَعْظَمُ مِنَّا فِيْهَا أَمْراً فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّ الَّذِيْ يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ مِنْ أَنَّ البَعْثَ بَعْدَ المَوْتِ لِيَجْزِيَ المُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ حَقٌّ، وَلاَ خَيْرَ فِي التَّمَادِي فِي البَاطِلِ.

إِذَنْ كَانَ عَمْرُو تَبَعاً لِسَادَةِ قُرَيْشٍ عَامَّةً وَلأَبِيهِ خَاصَّةً، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَلَدِّ أَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ، وَمَاتَ أَوْ قُتِلَ مَنْ كَانَ يَعُدُّهُمْ أَصْحَابَ رَأْيٍ سَدِيدٍ تَحَرَّرَ بِفِكْرِهِ فَتَوَصَّلَ إِلَى الحَقِّ وَهَدَاهُ اللَّهُ إِلَى دَرْبِ الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمَ.

فِي الجَاهِلِيَّةِ

عُرِفَ ابنُ العَاصِ بَيْنَ قَوْمِهِ بالدَّهَاءِ، وَلَمَّا كَانَ صَدِيقاً لِنَجَاشِيِّ الحَبَشَةِ يَلْتَقِي بِهِ كُلَّمَا سَافَرَ بِتِجَارَةٍ إِلَى بِلاَدِهِ حَتَّى عَرَفَ الكَثِيرَ مِنْ رَغَبَاتِهِ وَطِبَاعِهِ، لِذَا فَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ لِلسَّفَرِ إِلَى الحَبَشَةِ مَعَ مَنْ يُسَافِرُ إِلَيْهَا لِرَدِّ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهَا، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا بَعْدَ أَنِ اطْمَأَنُّوا فِيْهَا.

قالَ ابنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَمِنُوا وَاطْمَأَنُّوا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَاراً وَقَراراً، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا فِيْهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلْدَيْنِ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَرُدُّهُمْ عَلَيْهِمْ، لِيَفْتِنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ دَارِهِمْ الَّتِي اطْمَأَنُّوا بِهَا وَأَمِنُوا فِيهَا؛ فَبَعَثُوا عَبْدَ اللَّهِ[1] بنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو بنَ العَاصِ بنِ وَائِلٍ، وَجَمَعُوا لَهُمَا هَدَايَا لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ، ثُمَّ بَعَثُوهُمَا إِلَيْهِ فِيْهِمْ[2].

---

(١) عبد الله: أسلم، وكان اسمه بحيري فسمّاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عبد الله، وهو أخو أبو جهل لأمه، وأمهما هي: أسماء بنت محربة التميمية. وعبد الله، والد الشاعر المعروف عمر بن أبي ربيعة، ووالد الحارث بن أبي ربيعة أمير البصرة والمعروف بالقباع.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦.

وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدِ بِنْتِ أَبي أُمَيَّةَ بن المُغِيرَةِ المَخْزومِيَّةِ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ، النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى لاَ نُؤْذَى وَلاَ نَسْمَعُ شَيْئاً نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشاً ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيْنَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يَسْتَطْرِفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمَاً كَثِيراً، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقَاً إِلاَّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرَو بنَ العَاصِ، وَأَمَرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلاَهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، قَالَتْ: فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، وَقَالاَ لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِ المَلِكِ مِنَّا غِلمانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِيْنِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لاَ نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى المَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدُّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا

كَلَّمْنَا المَلِكَ فِيْهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً، وَأَعْلَمُ مِمَّا عَابُوا عَلَيْهِمْ؛ فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَم. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَدَّمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالاَ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لاَ نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيْهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوهُ عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بنِ العَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلاَمَهُمُ النَّجَاشِيُّ. قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أَيُّهَا المَلِكُ، قَومُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلاَدِهِمْ وَقَوْمِهِمْ. قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لاَهَا اللَّهِ، إِذَنْ لاَ أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلاَ يُكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلاَدِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلُهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولاَنِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَائِنَاً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاءُوا وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيْهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي، وَلاَ فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ المِلَلِ؟. قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، كُنَّا قَوْمَاً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ؛ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصِنَاتِ؛ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرْنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ والصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شيئاً، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحلَّ لَنا، فَعَدَا عَلَيْنا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلاَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جعْفَرُ: نَعمْ؛ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْ عَلَيَّ؛ قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ: «كَهَيَعص». قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ، حِينَ سَمِعُوا مَا تَلاَ عَلَيْهِمْ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَلا وَاللَّهِ لاَ أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُما، وَلاَ يُكَادُونَ.

قَالَت: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ: وَاللَّهِ لأَتِيَنَّهُ غَداً عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. قَالَتْ:

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي رَبيعَةَ ، وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا : لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَاماً ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا ، قَالَ : وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى بنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ. قَالَتْ : ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ مِنَ الغَدِ. فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا المَلِكُ ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيماً ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمَا يَقُولُونَ فِيْهِ. قَالَتْ : فَأَرْسَلَ إِلَيْهِم لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ قَالَتْ : وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا قَطُّ. فَاجْتَمَعَ القَوْمُ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بنِ مَرْيَمَ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ . قَالُوا : نَقُولُ وَاللَّهِ مَا قَالَ اللَّهُ ، وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ، كَائِنَاً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. قَالَتْ : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بنِ مَرْيَمَ؟ قَالَتْ : فَقَالَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ : نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، يَقُولُ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ العَذْرَاءِ البَتُولِ. قَالَتْ : فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ مَا عَدَا عِيسَى بنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا العُود. قَالَتْ : فَتَنَاخَرتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ؛ فَقَالَ : وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُبُومٌ[1] بِأَرْضِي ، مَنْ

---

(١) شبوم بلغة أهل الحبشة تعني آمنون.

سَبَّــكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّــكُمْ غَرِمَ، مَا أُحِــبُّ أَنَّ لِي دَبْـراً[1]. مِن ذَهَبٍ، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ، رُدُّوا عَلَيْهِمَـا هَدَايَاهُمَا فَلاَ حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرَّشْـوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذُ الرَّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعُهُـمْ فِيْهِ. قَالَـتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْـدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُوداً عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ[2].

وَرَجَعَ عَمْرُو بنُ العاصِ وَصَاحِبُهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ خَائِبَيْنِ إِلَى مَكَّةَ، لَمْ يَظْفَرَا بِشَيْءٍ مِنْ حَاجَتِهِمَا، وَلَمْ يُنْجِزَا شَيْئاً مِنْ مُهِمَّتِهِمَا. وَبَقِيَ عَمْرُو يُتَابِعُ أَبَاهُ وَزُعَمَاءَ قُرَيْشٍ فِي مُعَادَاةِ الإِسْلاَمِ والمُسْلِمِينَ، وَمَاتَ أَبُوهُ فِي السَّنَـةِ الرَّابِعَـةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَاسْتَمَرَّ عَمْرُو فِي عِدَائِهِ.

وَهَاجَرَ المُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَـى المَدِينَـةِ وَهَاجَـرَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُقِيمَتْ دَوْلَةُ الإِسْـلاَمِ وَبَـدَأَ الصِّرَاعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ، وَخَرَجَ عَمْرُو بنُ العَاصِ فِي قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى الشَّامِ، وَنَجَتِ القَافِلَةُ مِنَ الوُقُوعِ فِي

---

(١) الدبر بلغة أهل الحبشة تعني الجبل.

(٢)) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٨ ـ ٣٦٢.

قَبْضَةِ المُسْلِمِينَ فِي الذَّهَابِ والإِيَابِ .

وَالتَقَى المُسْلِمُونَ الخَارِجُونَ لِلِقَاءِ القَافِلَةِ مَعَ جَيْشِ مَكَّةَ القَادِمِ لِلثَّأْرِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْقَافِلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ عَمْرُو فِي هَذَا الجَيْشِ لأَنَّـهُ كَانَ فِي عَدَادِ رِجَالِ القَافِلَةِ[1] ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةً حاسِمَةً انْتَصرَ فِيْهَا الحَقُّ وَدُحِرَ البَاطِـلُ، وَقُتِـلَ فِيْهَـا أَكْثَـرُ طَوَاغِيتِ الشِّـرْكِ ومِنْهُـمْ: مُنَبِّهُ بـنُ الحَجَّـاجِ أَبُـو زَوْجِ عَمْرِو بن العَاصِ ، وَقَدْ قَتَلَهُ أَبُو اليَسْرِ، وَأَخُوهَا العَاصُ بنُ مُنَبِّهٍ وَقَتَلَهُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَمُّهَا نُبَيْهُ بنُ الحَجَّاجِ وَقَتَلَهُ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ .

فَكَّرَتْ قُرَيْشٌ بِأَنْ تَثْأَرَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِإِخْوَانِهِمُ المُهَاجِرِينَ إِلَى الحَبَشَةِ فَأَرْسَلَتْ وَفْداً جَدِيداً إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَيَتَأَلَّفُ مِنْ عَمْرِو بنِ العَـاصِ ، وَعُمَارَةِ بـنِ الوَلِيدِ بـنِ المُغِيرَةِ[2] ،

---

(١) يذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن عمرو بن العاص قد حضر بدراً مع المشركين ، ويبدو أنه أخطأ في ذلك ـ والله أعلم .

(٢) عمارة بن الوليد: أخو خالد بن الوليد، وهو الذي عرضته قريش على أبي طالب بديلاً عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعطونه عمارة، ويُسلّمهم محمّداً عليه الصلاة والسلام ، وكان عمارة أكثر فتيان قريش جمالاً ونضارة. وقد رفض أبو طالب ذلك وقال: تعطوني ابنكم لأتعهده لكـم، وأسلمكم ابني لتقتلوه ما هذا بالحقّ والله .

وَرُبَّمَا ظَنَّتْ أَنَّ مَوْقِفَ النَّجَاشِيِّ قَدْ تَغَيَّر لِمَا كَانَتْ تَعْلَمُهُ مِنْ نَقْمَةِ البَطَارِقَةِ وَرِجَالِ الكَنِيسَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَعَلَى إِيْوَائِهِ المُسْلِمِينَ فِي بَلَدِهِ، وَلَكِنَّ الوَفْدَ فَشِلَ فِي مُهِمَّتِهِ ثَانِيَةً[1]، وَرُبَّمَا كَانَ أَكْثَرَ مِنْ فَشَلِهِ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى، وَعَادَ الوَفْدُ خَائِباً، وَقَطَعَتْ قُرَيْشٌ الأَمَلَ فِي أَنْ تَنَالَ شَيْئَاً مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الحَبَشَةِ.

وَاسْتَدَارَ العَامُ عَلَى مَعْرَكَةِ بَدْرٍ فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ لِلثَّأْرِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَخَرَجَتْ مَعَهَا النِّسَاءُ التِمَاسَ الحَفِيظَةِ، كَيْ لاَ تَفِرَّ الرِّجَالُ أَمَامَ النِّسَاءِ، وَخَوْفَاً مِنَ العَارِ إِذْ تُسْبَى النِّسَاءُ لَوْ

(١) وما يرويه الأصفهاني في كتابه الأغاني: أن زوجة عمرو بن العاص قد فتنت بعمارة واتفقت معه على قتل زوجها، وقد ألقوه بالبحر غير أنه سبح وأخرجه ربّان المركب، وقد مكر عمرو انتقاماً بعمارة عند النجاشي، فقال عمرو لعمارة: أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال، فتعرّض لزوجة النجاشي لعلها أن تشفع لنا عنده، ففعل عمارة ذلك وتكرر تردده عليها حتى أهدت إليه من عطرها: أي ودخل عندها، فلما رأى عمرو ذلك أتى النجاشي وأخبره بذلك: أي فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن، فاعلم علم ذلك، فبعث النجاشي فإذا عمارة عند امرأته، فقال: لولا إنه جاري لقتلته، ولكن سأفعل به ما هو شرّ من القتل، فدعا بساحر فنفخ في إحليله نفخة، طار منها هائماً على وجهه مسلوب العقل حتى لحق بالوحوش في الجبال إلى أن مات على تلك الحال. ولا صحة لهذا أبداً وهو من خيال الأصفهاني، ولكن أخذ عنه بعض كتاب السير ـ مع الأسف ـ مثل علي بن برهان الدين الحلبي صاحب كتاب السيرة الحلبية.

هَرَبَ الرِّجَالُ، وَطَلَبَاً لإِظْهَارِ الرُّجُولَةِ أَمَامَهُنَّ، وَكَانَ فِيمَنْ خَرَجَ عَمْرُو بنُ العَاصِ وَمَعَهُ زَوْجُهُ رَيْطَةُ بِنْتُ مُنَبِّهِ بنِ الحَجَّاجِ، وَنَجَا عَمْرُو، وَقَالَ شِعْرَاً مُفْتَخِرَاً بِذَلِكَ اليَوْمِ.

خَرَجْنَا مِنَ الفَيْفَا عَلَيْهِمْ كَأَنَّنَا
مَعَ الصُّبْحِ مِنْ رَضْوَى الحَبِيكِ المُنَطَّقُ[١]
تَمَنَّتْ بَنُو النَّجَّارِ جَهْلاً لِقَاءَنَا
لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ وَالأَمَانِيُّ تَصْدُقُ[٢]
فَمَا رَاعَهُمْ بِالشَّرِّ إِلاَّ فُجَاءَةً
كَرَادِيسُ خَيْلٍ فِي الأَزِقَّةِ تَمْرُقُ
أَرَادُوا لِكَيْمَا يَسْتَبِيحُوا قِبَابَنَا
وَدُونَ القِبَابِ اليَوْمَ ضَرْبٌ مُحَرِّقُ
وَكَانَتْ قِبَابَاً أُومِنَتْ قَبْلَ مَا تَرَى
إِذَا رَامَهَا قَوْمٌ أُبِيحُوا وَأُحْنِقُوا
كَأَنَّ رُؤُوسَ الخَزْرَجِيينَ غُدْوَةً
وَإِيمَانُهُمْ بِالمَشْرَفِيَّةِ بَرُوقُ[٣]

---

(١) رضوى: اسم جبل قرب المدينة. الحبيك: ذو الشعاب والدروب. المنطق: المجزم.
(٢) سلع: اسم جبل في المدينة.
(٣) بروق: اسم نبات.

فأَجَابَهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ :

أَلاَ أَبْلِغَا فِهْـراً عَلَـى نَأْيِ دَارِهَا
وَعِنْدَهُـمْ مِنْ عِلْمِنَـا اليَوْمَ مُصْدَقُ
بِأَنَّا غَدَاةَ السَّفْحِ مِنْ بَطْـنِ يَثْرِبٍ
صَبَرْنَـا وَرَايَاتُ المَنِيَّةِ تَخْفُقُ
صَبَرْنَـا لَهُـمْ والصَّبْـرُ مِنَّـا سَجِيَّةٌ
إِذَا طَارَتْ الأَبْرَامُ نَسْـمُـو وَنَرْتُقُ[1]
عَلَـى عَادَةٍ تِلْـكُمْ جَرَيْنَـا بِصَبْرِنَا
وَقِدْماً لَدَى الغَـايَاتِ نَجْـرِي فَنَسْبِقُ
لَنَـا حَوْمَـةٌ لاَ تُسْتَطَـاعُ يَقُودَهَا
نَبِـيٌّ أَتَـى بِالحَـقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ
أَلاَ هَلْ أَتَـى أَفْنَـاءَ فِهْرِ بـنِ مَالِكٍ
مُقَطَّـعُ أَطْـرَافٍ وَهَـامُ مُفَلَّقُ

كَمَا قَالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ :

لَمَّـا رَأَيْتُ الحَـرْبَ يَنْـ
ـزُو شَرَّهَـا بِالـرَّضْفِ نَزْوَا

---

(١) الأبرام: اللئام.

وَتَنَاوَلْــتُ شَهْبَــاءُ تَلْـ

ـحُــو النَّــاسَ بِالضَّــرَّاءِ لَحْوا

أَيْقَنْــتُ أَنَّ المَــوْتَ حَقٌّ

وَالحَيَاةَ تَكُونُ لَغْوا

حَمَّلْــتُ أَثْوَابِــي عَلَى

عَتَــدٍ يَبُــذُّ الخَيْلَ رَهْوا[1]

سَــلِسٍ إِذَا نَكِبْــنَ فِي الـ

ـبَيْدَاءِ يَعْلُــو الطَّــرْفَ عَلْوا

وَإِذَا تَنَــزَّلَ مَاؤُهُ

مِــنْ عِطْفِــهِ يَزْدَادُ زَهْوَا

رَبِــذٍ كَيَعْفُــورِ الصَّرِيـ

ـمَــةِ رَاعَــهُ الرَّامُــونَ رَحْــوا[2]

شَنِــجٍ نَسَــاهُ ضَابِطٍ

لِلْخَيْلِ إِرْخَــاءً وَعَدْوا[3]

فَفِــدَىً لَهُــمْ أُمِّــي غَدَا

ةَ الــرَّوْعِ إِذْ يَمْشُــونَ قَطْوا[4]

---

(١) عتد: الجواد القوي.

(٢) الربذ: السريع. اليعفور: ولد الغزالة.

(٣) شنج: منقبض.

(٤) القطو: مشي القطاة أي مشية فيها تبختر.

سَيْرَاً إِلَـى كَبْشِ الكَتِيـ
ـبَـةِ إِذْ جَلَتْـهُ الشَّـمْسُ جَلْوا

وَأَجَابَهُ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ بِقَصِيدةٍ طَوِيلَةٍ مِنْهَا:

أَبْلِـغْ قُرَيْشـاً وَخَيْرُ القَـوْلِ أَصْدَقُهُ
وَالصِّدْقُ عِنْـدَ ذَوِي الألْبَـابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَـا بِقَتْلاَنَـا سَرَاتَكُمُ
أَهْـلَ اللِّـوَاءِ فَفِيمَـا يَكْثُـرُ القِيلُ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَـاكُمْ لَنَـا مَدَدٌ
فِيْهِ مَعَ النَّصْـرِ مِيكَالٌ وَجبْرِيلُ
إِنْ تَقْتُلُونَـا فَدِينُ الحَـقِّ فِطْرَتُنَا
وَالقَتْـلُ فِي الحَقِّ عِنْـدَ اللَّـهِ تَفْضِيلُ

ويَبْدُو أن عَمْرَاً قَدْ لَحِقَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ بِقَرْيَتِهِ «الوَهْطِ» الَّتِي هِيَ بِالطَّائِفِ عَلَى بُعْدِ ثَلاَثَةِ أَمْيَالٍ مِنْ «وَجٍّ» فَجلَسَ فِيهَا مُدَّةً، وَلَكِنْ عِنْدَمَا اجْتَمَعَتِ الأَحْزَابُ وَاتَّفَقتْ فِيمَا بَيْنَهَا عَلَى القَضَاءِ عَلَى المَدِينَةِ خَرَجَ مَعَهُمْ، وكَانَـتْ غَزْوَةُ الخَنْـدَق ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّـهُ عَلَـى الأَحْـزَابِ الـرِّيحَ فِي لَيَالٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ، فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ[1] قُدُورَهُمْ، وَتَطْرَحُ أَبْنِيَتَهُمْ.

---

(١) تكفأ: تقلب.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اخْتِلافُ أَمْرِ الأَحْزَابِ، وَمَا فَرَّقَ اللَّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ، دَعَا حُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ، فَبَعَثَهُ إِلَيْهِمْ، لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ القَوْمُ لَيْلاً.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَرَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يا ابنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُوِيّاً[1] مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرَّجْعَةَ - أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ؟ فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، وَشِدَّةِ الجُوعِ، وَشِدَّةِ البَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ، دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ القِيَامِ حِينَ دَعَانِي؛ فَقَالَ: يَا حُذَيْفَةُ، اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي

---

(١) هُوِيّاً من الليل: جزءاً من الليل.

الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئَاً حَتَّى تَأْتِيَنَا . قَالَ : فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ ، لاَ تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرَاً وَلاَ نَاراً وَلاَ بِنَاءً . فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ : فَضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى يَدِ الَّذِيْ عَنْ يَمِينِي ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ، فَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ : مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ ، ثُمَّ ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى يَدِ الَّذِيْ عَنْ شِمَالِي ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ : عَمْرُو بنُ العَاصِ [1] .

ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَقُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ ، لَقَدْ هَلَكَ الكِرَاعُ [2] وَالخُفُّ [3] ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ ، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ ، مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ ، وَلاَ تَقُومُ لَنَا نَارٌ ، وَلاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ ؛ ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلاَثٍ ، فَوَاللَّهِ مَا أُطْلِقَ عِقَالُهُ إِلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ ، وَلَوْلاَ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ،

---

(١) شرح المواهب اللدنية .
(٢) الكراع : الخيل .
(٣) الخفّ : الإبل .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ «أَلاَّ تُحْدِثَ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنِي» ثُمَّ شِئْتُ، لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ.

قَالَ حُذَيْفَةُ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ[1] لِبَعْضِ نِسَائِهِ... فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ. وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلاَدِهِمْ.

وَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انْصَرَفَ عَنِ الخَنْدَقِ رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ وَالمُسْلِمُونَ، وَوَضَعْنَا السِّلاَحَ[2].

وَزَالَتِ الغُمَّةُ عَنِ المُسْلِمِينَ. وَبَدَا لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ أَنَّ المُسْلِمِينَ فِي أَمَانٍ، وَأَنَّ هُنَاكَ قُوَّةً لاَ قِبَلَ لِلْبَشَرِ بِهَا تَتَوَلاَّهُمْ وَتَرْعَاهُمْ. وَأَنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْبَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ وَمُقَارَعَةِ أَهْلِ الأَرْضِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ إِيمَانٍ وَثَبَاتٍ عَلَى الحَقِّ.

---

(١) المِرط: الكساء.

(٢) سيرة ابن هشام. وكان منصرفه عن الخندق لسبع بقين من ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة.

إِسْلَامُ عَمْرِو بنِ العَاصِ

بَعْدَ أَنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ الخَنْدَقِ أَخَذَ عَمْرُو بنُ العَاصِ يُفَكِّرُ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي شَأْنِ نَفْسِهِ، فَيَقُولُ فِي ذَلِكَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مَعَ الأَحْزَابِ عَنِ الخَنْدَقِ جَمَعْتُ رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا يَرَوْنَ رَأْيِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ أَنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الأُمُورَ عُلُوّاً مُنْكَراً، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَمْراً، فَمَا تَرَوْنَ فِيْهِ؟ قَالُوا: وَمَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَنَكُونُ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عَرَفُوا، فَلَنْ يَأْتِينَا مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْرٌ، قَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيَ؛ قُلْتُ: فَاجْمَعُوا لَنَا مَا نَهْدِيهِ لَهُ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الأَدَمَ. فَجَمَعْنَا لَهُ أَدَماً كَثِيراً، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ.

فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَهُ عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ بَعَثَهُ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، لَو قَدْ دَخَلْتُ عَلَى

النَّجَاشِيِّ وَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيه، فضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فإِذَا فَعلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرْحَباً بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ بِلاَدِكَ شَيْئاً؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَيُّهَا المَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ إِلَيْكَ أَدَماً كَثِيراً؛ قَالَ: ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا، فَأَعْطِنِيهِ لأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا. قَالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوِ انْشَقَّتْ لِيَ الأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقاً مِنْهُ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ، وَاللَّهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَهُ، قَالَ: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذِيْ كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ! قَالَ: قُلْتُ: أَيُّهَا المَلِكُ، أَكَذَاكَ هُوَ؟ قَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، أَطِعْنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الحَقِّ، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ، كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَونَ وَجُنُودِهِ، قَالَ: قُلْتُ: أَفَتُبَايِعُنِي لَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعْتُهُ عَلَى الإِسْلاَمِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ عَنْ أَصْحَابِي إِسْلاَمِي.

ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدَاً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأُسْلِمَ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ؛ فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَقَامَ المَنْسِمُ[1]، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٌّ، أَذْهَبُ وَاللَّهِ فَأُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى! قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا جِئْتُ إِلاَّ لأُسْلِمَ. قَالَ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَتَقَدَّمَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ، ثُمَّ دَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ يُغْفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، وَلاَ أَذْكُرُ مَا تَأَخَّرَ؛ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَمْرُو بَايِعْ، فَإِنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ[2].

وَقَدْ فَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِإِسْلاَمِهِمَا، فَهُمَا مِنْ عِلِيَةِ القَوْمِ، وَأَصْحَابُ إِمْكَانَاتٍ قِتَالِيَّةٍ، وَفَنٍّ حَرْبِيٍّ، وَكَانَ إِيمَانُهُمَا إِيمَانَ صِدْقٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ،

---

(١) المنسم: خفّ البعير، ويقصد بها الطريق.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠ سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٩، ٦٠، مغازي الواقدي، تاريخ ابن عساكر، وأخرجه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه.

وفي رواية أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان مع خالد حين التقى بهما عمرو، وقد أسلم معهما أيضاً.

صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـم : «أَسْلَمَ النَّـاسُ وآمَـنَ عَمْرُو بـنُ العَاصِ»[1].

وَيَقُولُ عَمْرُو: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَشَدُّ النَّاسِ حَيَاءً مِنْ رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ. فَمَـا مَلأْتُ عَيْنِـي مِنْـهُ وَلاَ رَاجَعْتُهُ».

وَكَانَ فَرَحُهُ لأَنَّهُ يُحِبُّ الخَيْرَ لِلْنَّاسِ جَمِيعاً وَيَتَمَنَّى لَوْ يُؤْمِـنُ مِنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَـاً، وَيَعْمَـلُ لِذَلِكَ، حَتَّـى أَلَـدِّ أَعْدَائِهِ، وَلاَ نَنْسَى قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَسَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». وقوله: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ».

مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِإِسلاَمِ خَالِدٍ، وَعَمْرٍ، وَعُثْمَانَ، فَرِحَ كَمَا يَفْرَحُ لإِسْلاَمِ كُلِّ إِنْسَانٍ، إِذْ فِيْهِ إِنْقَاذٌ مِنَ النَّارِ، وَفَرِحَ لِمَكَانَتِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ فَرِحَ لِمَعْرِفَةِ خَالِدٍ، وَعَمْرٍ بِشُؤُونِ الحَرْبِ. فَيَقُولُ عَمْرُو بنُ العَاصِ: مَا

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٤٤) وأحمد ٤/ ١٥٥.

عَدَلَ بِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَبِخَالِـدٍ مُنْـذُ أَسْلَمْنَا أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ فِي حَرْبِهِ[1].

بَقِيَ خَالِدٌ وَعَمْرُو فِي دَارِ الهِجْرَةِ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَةٍ لِيَعِيشَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِـي جَوِّ الصَّحَابَـةِ فَالقَائِدُ هُوَ إِمَامُ جَيْشِهِ وَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ، وَبَدَأَتْ بَعْدَهَا تُوكَلُ إِلَيْهِمَا المُهِمَّاتُ، يَقُولُ عَمْرُو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «خُـذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلاَحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ البَصَرَ، وَصَوَّبَهُ فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ، فَيُسَلِّمُكَ اللَّهُ وَيُغْنِمُكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ رَغْبَةً صَالِحَةً مِنَ المَالِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ المَالِ، وَلَكِنِّـي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الإِسْلاَمِ، وَلأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ يَا عَمْرُو: «نِعِمَّاً المالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»[2].

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ قُضَاعَةَ قَدْ تَجَمَّعُوا يُرِيدُونَ المَدِينَةَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَمْرَو بنَ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ،

---

(١) انظر ابن عساكر ٣/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢، وابن حبان (١٠٨٩)، والحاكم ٢/ ٢، وذكره ابن عساكر ١٣/ ٢٥٣، والذهبي.

وَذَلِكَ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ بِسَنَةٍ، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً أَبْيَضَ، وَجَعَلَ مَعَهُ رَايَةً سَوْدَاءَ، وَبَعَثَهُ فِي ثَلاَثِمائَةٍ مِنْ سَرَاةِ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، وَمَعَهُمْ ثَلاَثُونَ فَرَساً. وَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِمْ[1]، فَسَارَ اللَّيْلَ وَكَمَنَ النَّهَارَ حَتَّى قَرُبَ مِنَ القَوْمِ[2]، فَبَلَغَهُ أَنَّ لَهُم جمعاً كثيراً. فَبَعَثَ رَافِعَ بنَ كَعْبٍ الجُهَنِيَّ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ فِي مِائَتَيْنِ مِنْ سَرَاةِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ مِنْهُمْ أَبو بَكْرٍ، وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحق بِعَمْرٍ، وَأَنْ يكُونَا جَمِيعاً وَلاَ يَخْتَلِفَا، فَلَحِقَ بِعَمْرٍ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَأَرَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يَؤُمَّ النَّاسَ، فَقَالَ عَمْرُو: إِنَّمَا قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَداً وَأَنَا الأَمِيرُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ جَمْعٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ لِعَمْرٍ: أَنْتَ أَمِيرُ أَصْحَابِكَ، وَهُوَ أَمِيرُ أَصْحَابِهِ[3]، فَقَالَ عَمْرُو: أَنْتُمْ مَدَدٌ لَنَا، فَلَمَّا رَأَى أَبُو عُبَيْدَةَ الاخْتِلاَفَ قَالَ: لِتَعْلَمَ يَا عَمْرُو أَنَّ آخِرَ شَيْءٍ عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ قَالَ: إِنْ

---

(١) كانت أم والده العاص بن وائل امرأة من قبيلة بليّ، وكانت منازل هذه القبيلة على طريقة إلى قضاعة.

(٢) وذلك عندما وصل إلى ماء بأرض جذام يقال له السّلسل، وبه سميت تلك الغزوة «غزوة ذات السلاسل».

(٣) لا يصحّ أن تكون جماعتان، والرأي ما قاله عمرو.

قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا، وَإِنِّي وَاللَّهِ إِنْ عَصَيْتَنِي لأُطِيعَنَّكَ، قَالَ: فَإِنِّي الأَمِيرُ عَلَيْكَ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: فَدُونَكَ فَصَلِّ بِالنَّاسِ[1]. فَكَانَ عَمْرٌ يُصَلِّي بِالنَّاسِ.

وَحَمَلَ المُسْلِمُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ فَتَفَرَّقُوا، فَأَرَادَ المُسْلِمُونَ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ، فَمَنَعَهُمْ عَمْرُو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرَادُوا أَنْ يُوقِدُوا نَاراً لِيَصْطَلُوا عَلَيْهَا مِنَ البَرْدِ فَمَنَعَهُمْ عَمْرُو، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِمَا فِيْهِ مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ، فَكَلَّمَهُ بَعْضُ سَرَاةِ المُهَاجِرِينَ فَغَالَظَهُ عَمْرُو فِي القَوْلِ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ أُمِرْتَ أَنْ تَسْمَعَ لِي وَتُطِيعَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَافْعَلْ. وَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ

(١) أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة أفضل من عمرو بن العاص، وهو يعلم هذا، ويقرّ لهم بالأسبقية للإسلام، ويعترف بفضلهم. وكان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يضع كل رجل في المكان الذي يصلح له، وعمرو بن العاص أكثر خبرةً بالحرب، وأكثر دهاءً، ومكيدةً، لذا فقد أمرّه على من هو أفضل منه. والواقع أن أبا عبيدة قد أُرسل مدداً لعمرو، فعمرو هو الأمير غير أن حبنا لأبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة وفضلهم وسابقتهم، وتأخّر إسلام عمرو يجعلنا نقف شعورياً بجانب أبي عبيدة ومن جاء معه. وقد تمسّك عمرو بموقفه لأن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم قد أمرّه ولا يمكنه أن يتنازل عن شيء أعطاه له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا بأمرٍ صريح منه، ويأمره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالتنازل، ولم يطلب منه أبو عبيدة، وإنما نتصور أن الأحقية لأبي عبيدة لفضله وسابقته هو ومن معه. ثم إن الإمرة على جيش فيه أبو عبيدة، وأبو بكر، وعمر لفخر عظيم لا يتركه المرء بسهولة.

عُمَرَ بنَ الخطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غَضِبَ وَهَمَّ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَمَنَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ إِلاَّ لِعِلْمِهِ بِالحَرْبِ فَسكَتَ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شَكُوهُ، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! كَانَ فِيهِمْ قِلَّةٌ، فَخَشِيتُ أَنْ يَرى العَدُوُّ قِلَّتَهُمْ، وَنَهْيتُهُمْ أَنْ يَتْبَعُوا العَدُوَّ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ كَمِينٌ فَأَعْجَبَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَاحْتَلَمَ عَمْرُو، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فِي لَيْلَةٍ كَانَتْ شَدِيدَةَ البَرْدِ أَثْنَاءَ هَذِهِ الغَزْوَةِ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: مَا تَرَوْنَ؟ قَدْ وَاللَّهِ احْتَلَمْتُ فَإِنِ اغْتَسَلْتُ مِتُّ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَغَسَلَ فَرْجَهُ وَتَوَضَّأَ وَتَيَمَّمَ، ثُمَّ قَامَ وَصَلَّى بِالنَّاسِ. ثُمَّ بَعَثَ عَوْفَ بنَ مَالِكٍ مُبَشِّراً لِلنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقُدُومِهِمْ وَسَلامَتِهِمْ. قَالَ: قَالَ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: جِئْتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ، فَقُلْتُ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَقَالَ: عَوفُ بنُ مَالِكٍ: فَقُلْتُ: نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَخْبِرْنِي، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ مِنْ مَسِيرِنَا، وَمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وَبَيْنَ عَمْرٍ، وَمُطَاوَعَةُ أَبِي عُبَيْدَةَ

لِعَمْرٍو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَنْعِ عَمْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، لِلمُسْلِمِينَ مِنِ اتِّبَاعِ العَدُوِّ، وَمِنْ إِيقَادِ النَّارِ، وَمِنْ صَلاَتِهِ بِأَصْحَابِهِ وَهُوَ جُنُبٌ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ عَمْرٌ كَلَّمَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: كَرِهْتُ أَنْ يُوقِدُوا نَاراً فَيَرَى عَدُوُّهُمْ قِلَّتَهُمْ، وَكَرِهْتُ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فَيَكُونُ لَهُمْ مَدَدٌ فَيَعْطِفُونَ عَلَيْهِمْ، فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْرَهُ. قَالَ عَمْرُو: وَسَأَلَنِي عَنْ صَلاَتِي فَقَالَ: يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟ فَقُلْتُ: وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَوِ اغْتَسَلْتُ لَمِتُّ، وَلَمْ أَجِدْ بَرْدَاً قَطُّ مِثْلَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

وَعِنْدَمَا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ عَمْرُو بنُ العَاصِ بَيْنَ أَفْرَادِ ذَلِكَ الجَيْشِ، وَبَعْدَ الفَتْحِ أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِهَدْمِ سُوَاعَ، وَهُوَ أَعْظَمُ صَنَمٍ لِهُذَيْلٍ، وَمَكَانُهُ عَلَى بُعْدِ ثَلاَثَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ.

---

(١) انظر تاريخ ابن عساكر، وسير أعلام النبلاء، والسيرة الحلبية.

وَشَارَكَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، وَحِصَارِ الطَّائِفِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى دَارِ الهِجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَانْطَلَقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وَالمُسْلِمِينَ إِلَى تَبُوكَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ، وَرَجَعَ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ نَفْسِهَا، وَبَدَأَتْ وُفُودُ القَبَائِلِ تَصِلُ إِلَى المَدِينَةِ فَتُبَايعُ وَتُسْلِمُ، وَحَجَّ أَبُو بَكْرٍ هَذَا العَامَ بِالنَّاسِ .

وَعِنْدَمَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ، الكُتُبَ إِلَى المُلُوكِ والأُمَرَاءِ، بَعَثَ عَمْرَو بنَ العَاصِ إلى (جَيْفَرَ) وَ (عَبْدٍ) ابْنَي الجَلَنْدِيِّ مَلِكَيْ عُمَانَ، وَبَعَثَ مَعَهُ كِتَاباً فِيهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ إِلَى (جَيْفَرَ) و (عَبْدٍ) ابنَي الجَلَنْدِيِّ، سَلاَمٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقُّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ، وَإِنَّكُمَا إنْ أَقْرَرْتُمَا بالإسْلاَمِ وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرَّا بِالإِسْلاَمِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلِي تَحِلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتَظْهَرُ نُبُوَّتِي

عَلَى مُلْكِكُمَا» وَخَتَمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، الكِتَابَ.

قَالَ عَمْرُو: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى عُمَانَ، فَعَمَدْتُ إِلَى عَبْدٍ، وَكَانَ أَحْلَمَ الرَّجُلَيْنِ وَأَسْهَلَهُمَا خُلُقاً، فَقُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيه وَسَلَّـمَ، إِلَيْكَ وَإِلَـى أَخِيكَ، فَقَالَ: أَخِي المُقَدَّمُ عَلَيَّ بالسِّـنِّ والمُلْكِ، وَأَنَـا أُوصِـلُكَ بِهِ حَتَّى يَقْرَأَ كِتَابَكَ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ؟ قُلْتُ: أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَتَخْلَعُ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ، وَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: يَا عَمْرُو إِنَّكَ ابـنُ سَيِّدِ قَوْمِـكَ فَكَيْفَ صَنَـعَ أَبُوكَ؟ يَعْنِي العَاصَ بنَ وَائِلٍ، فَإِنَّ لَنَا فِيْهِ قُدْوَةً! قُلْتُ: مَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَدِدْتُ لَهُ لَوْ كَانَ آمَنَ وَصَدَّقَ بِهِ، وَقَدْ كُنْتُ قَبْلُ عَلَى مِثْلِ رَأْيِهِ حتَّى هَدَانِي اللَّهُ لِلإِسْلاَمِ، فقَالَ: مَتَى تَبِعْتَهُ؟ قُلْتُ: قَرِيباً، فَسَأَلَنِي أَيْنَ كَانَ إِسْلاَمِي؟ فَقُلْتُ: عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، وَأَخْبَرْتُـهُ أَنَّ النَّجَاشِـيَّ قَدْ أَسْلَمَ، قَالَ: فَكَيْفَ صَنَعَ قَوْمُهُ بِمُلْكِهِ؟ قُلْتُ: أَقَرُّوهُ وَاتَّبَعُوهُ، قَالَ: وَالأَسَاقِفَةُ: أَيْ رُؤَسَاءِ النَّصْـرَانِيَّةِ والرُّهْبَـانِ، قُلْـتُ: نَعَمْ، قَالَ: انْظُرْ يَا عَمْرُو مَا تَقُولُ؟ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ خِصْلَةٍ فِي رَجُلٍ أَفْضَحُ لَهُ: أَيْ أَكْثَـرُ فَضِيحَـةً مِنْ كَذِبٍ. قُلْـتُ: وَمَـا

كَذَبْتُ وَمَا نَسْتَحِلُّهُ فِي دِينِنا، ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَى هِرَقْلَ عَلِمَ بِإِسْلاَمِ النَّجَاشِيِّ. قُلْتُ لَهُ: بَلَى. قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ عَلِمْتَ ذَلِكَ يَا عَمْرُو؟ قُلْتُ: كَانَ النَّجَاشِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُخْرِجُ لَهُ خَرَاجاً، فَلَمَّا أَسْلَمَ النَّجَاشِيُّ، وَصَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لاَ وَاللَّهِ، وَلَوْ سَأَلَنِي دِرْهَماً وَاحِداً مَا أَعْطَيْتُهُ، فَبَلَغَ هِرَقْلَ قَوْلُهُ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ: أَتَدَعُ عَبْدَكَ لاَ يُخْرِجُ لَكَ خَرَاجاً، وَيَدِينُ دِيناً مُحْدَثاً. فَقَالَ هِرَقْلُ: رَجُلٌ رَغِبَ فِي دِينٍ وَاخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ مَا أَصْنَعُ بِهِ؟ وَاللَّهِ لَوْلاَ الضَّنُّ بِمُلْكِي لَصَنَعْتُ كَمَا صَنَعَ، قَالَ انْظُرْ مَا تَقُولُ يَا عَمْرُو. قُلْتُ: وَاللَّهِ صَدَقْتُكَ. قَالَ عَبْدُ: فَأَخْبِرْنِي مَا الَّذِيْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ؟ قُلْتُ: يَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَيَأْمُرُ بِالبِرِّ وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَيَنْهَى عَنِ الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ، وَعَنِ الزِّنَا وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَعَنْ عِبَادَةِ الحَجَرِ وَالوَثَنِ وَالصَّلِيبِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الَّذِيْ يَدْعُو إِلَيْهِ لَوْ كَانَ أَخِي يُتَابِعُنِي لَرَكِبْنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَنُصَدِّقَ بِهِ، وَلَكِنَّ أَخِي أَضَنُّ بِمُلْكِهِ مِنْ أَنْ يَدَعَهُ وَيَصِيرَ ذَنَباً أَيْ تَابِعاً.

قُلْتُ: إِنَّهُ إِنْ أَسْلَمَ مَلَّكَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَرَدَّهَا عَلَى

فَقِيرِهِمْ، قَالَ: إنَّ هَذَا الخُلُقَ حَسَنٌ، وَمَا الصَّدَقَةُ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الصَّدَقَاتِ فِي الأَمْوَالِ. وَلَمَّا ذَكَرْتُ المَوَاشِيَ قَالَ: يَا عَمْرُو، يُؤْخَذُ مِنْ سَوَائِمِ مَوَاشِينَا الَّتِي تَرْعَى فِي الشَّجَرِ وَتَرِدُ المَاءَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَى قَوْمِي فِي بُعْدِ دَارِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ يُطِيعُونَ بِهَذَا.

قَالَ عَمْرُو: فَمَكَثْتُ أَيَّاماً بِبَابِ (جَيْفَرَ)، وَقَدْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ أَخُوهُ خَبَرِي، ثُمّ إِنَّهُ دَعَانِي فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ أَعْوَانُهُ بَعَضُدِي، قَالَ: دَعُوهُ، فَأُرْسِلْتُ، فَذَهَبْتُ لأَجْلِسَ فَأَبَوْا أَنْ يَدَعُونِي أَجْلِسُ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَكَلَّمْ بِحَاجَتِكَ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَاباً مَخْتُوماً، فَفَضَّ خَاتَمَهُ، فَقَرَأَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أَخِيهِ فَقَرَأَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تُخْبِرْنِي عَنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ صَنَعَتْ؟ فَقُلْتُ: اتَّبَعُوهُ، إِمَّا رَاغِبٌ فِي الدِّينِ وَإِمَا رَاهِبٌ مَقْهُورٌ بِالسَّيْفِ. قَالَ: وَمَنْ مَعَهُ؟ قُلْتُ: النَّاسُ قَدْ رَغِبُوا فِي الإِسْلاَمِ، وَاخْتَارُوه عَلَى غَيْرِهِ، وَعَرَفُوا بِعُقُولِهِمْ مَعَ هَدْيِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ، فَمَا أَعْلَمُ أَحَداً بَقِيَ غَيْرُكَ فِي هَذِهِ الخَرْجَةِ، وَأَنْتَ إِنْ لَمْ تُسْلِمِ اليَوْمَ وَتَتَّبِعْهُ تَطَؤُكَ الخَيْلُ، وَتُبِيدُ خَضْرَاءَكَ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ وَيَسْتَعْمِلُكَ

عَلَى قَوْمِكَ، وَلاَ تُدْخِلْ عَلَيْكَ الخَيْلَ والرِّجَالَ، قَالَ: دَعْنِي يَوْمِي هَذَا وَارْجِعْ إِلَيَّ غَدَاً. فَلَمَّا كَانَ الغَدُ أَتَيْتُ إِلَيْهِ، فَأَبى أَنْ يَأْذَنَ لِي، فَرَجَعْتُ إِلَى أَخِيهِ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي لَمْ أَصِلْ إِلَيْهِ، فَأَوْصَلَنِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِيمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ، فَإِذَا أَنَا أَضْعَفُ العَرَبِ إِنْ مَلَّكْتُ رَجُلاً مَا فِي يَدِي وَهُوَ لاَ تَبْلُغُ خَيْلُهُ هَا هُنَا، وَإِنْ بَلَغَتْ خَيْلُهُ أَلْفَتْ أَيْ: وَجَدَتْ قِتَالاً لَيْسَ كَقِتَالِ مَنْ لاَقَى. قُلْتُ: وَأَنَا خَارِجٌ غَدَاً، فَلَمَّا أَيْقَنَ بِخُرُوجِي خَلاَ بِهِ أَخُوهُ، فَأَصْبَحَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ، فَأَجَابَ إِلَى الإِسْلاَمِ هُوَ وَأَخُوهُ جَمِيعاً، وَصَدَّقَا، وَخَلَّيَا بَيْنِي وَبَيْنَ الصَّدَقَةِ وَبَيْنَ الحُكْمِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَا لِي عَوْناً عَلَى مَنْ خَالَفَنِي[1].

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَمْرُو عَلَى عُمَانَ، فَأَتَاهُ كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَبَ مِنْهُ القُدُومَ. وَيَبْدُو أَنَّ طَلَبَ القُدُومِ كَانَ لأَنَّ أَكْثَرَ العَرَبِ قَدِ ارْتَدُّوا، وَأَصْبَحَ مَا بَيْنِ المَدِينَةِ وَعُمَانَ رِدَّةٌ، وَيُخْشَى مِنْهَا، وَلاَ بُدَّ مِنْ إِعَادَةِ الأَوْضَاعِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ.

قَالَ عَمْرُو: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُسَيْلَمَةَ، فَأَعْطَانِي

---

(١) السيرة الحلبية: ٣/ ٣٠٠، ٣٠٣.

الأَمَانَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّداً أُرْسِلَ فِي جَسِيمِ الأُمُورِ، وَأُرْسِلْتُ فِي المُحَقَّرَاتِ. قُلْتُ: اعْرِضْ عَلَيَّ مَا تَقُولُ. فَقَالَ: يَا ضِفْدَعُ نِقِّي فَإِنَّكِ نِعْمَ مَا تَنِقِّينَ، لاَ زَاداً تُنَقِّرِينَ، وَلاَ مَاءً تُكَدِّرِينَ. ثُمَّ قَالَ: يَا وَبْرُ يَا وَبْرُ، وَيدَانِ وَصَدْرٌ، وَبَيَانٌ خَلْقُهُ حَفْرٌ. ثُمَّ أُتِيَ بِأُنَاسٍ يَخْتَصِمُونَ فِي نَخْلاَتٍ قَطَعَهَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. فَتَسَجَّى قَطِيفَةً، ثُمَّ كَشَفَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّيلِ الأَدْهَمِ، وَالذِّئبِ الأَسْحَمِ، مَا جَاءَ ابنُ أَبِي مُسْلِمٍ مِنْ مُجْرِمٍ. ثُمَّ تَسَجَّى الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: وَاللَّيلِ الدَّامِسِ، وَالذِّئبِ الهَامِسِ، مَا حُرْمَتُهُ رَطِباً إلاَّ كَحُرْمَتِهِ يَابِسٍ، قُومُوا فَلاَ أَرَى عَلَيْكُمْ فِيمَا صَنَعْتُمْ بَأْساً. قَالَ عَمْرُو: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ كَاذِبٌ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ إِنَّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ، فَتَوَعَّدَنِي[1].

مَعَ الخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَصَلَ عَمْرُو بنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ قَادِماً مِنْ عُمَانَ، وَكَانَ الخَلِيفَةُ الصِّدِّيقُ قَدْ رَأَى تَغْيِيرَ عُمَّالَ الصَّدَقَاتِ، فَسَيَّرَ عَمْرَو بنَ العَاصِ إِلَى قُضَاعَةَ، وَبَقِيَ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ يَجْمَعُ صَدَقَاتِ قُضَاعَةَ، وَكَانَتْ قَدْ

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٦٩.

دَخلَتِ السَّنَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ فَاسْتَدْعَاهُ الخَلِيفَـةُ وَولاَّهُ عَلَـى مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـم، قَدْ وَلاَّهُ، عَلَـى صَدَقَاتِ عُمَانَ، فَسَارَ عَمْرُو إِلَى عَمَلِهِ الجَـدِيدِ، وَبَعْـدَ مُدَّةٍ رَأَى الخَلِيفَةُ الصِّدِّيقُ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْه بِمُهِمَّةٍ جَدِيدَةٍ لِيَسْتَفِيدَ فِيهَا مِنْ مَهَارَتِهِ الحَرْبِيَّةِ وَدَهَائِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنِّي كُنْتُ قَدْ رَدَدْتُكَ عَلَى العَمَلِ الَّذِيْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَّكَهُ مَرَّةً، وَسَمَّاهُ لَكَ أُخْرَى، وَمُبْعِثُكَ إِلَى عُمَانَ إِنْجَازاً لِمَوَاعِيدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ وُلِّيتَهُ ثُمَّ وُلِّيتَهُ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ أُفْرِغَكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فِي حَيَاتِـكَ وَمَعَادِكَ مِنْهُ؛ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الَّذِيْ أَنْتَ فِيْهِ أَحَبَّ إِلَيْكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ: إِنِّي سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الإِسْلاَمِ، وَأَنْـتَ بَعْـدَ اللَّـهِ الرَّامِي بِهَا، وَالجَامِعُ لَهَا، فَانْظُرْ أَشَدَّهَا وَأَخْشَاهَـا وَأَفْضَلَهَـا فَارْمِ بِهِ شَيْئاً إِنْ جَاءَكَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي.

جَاءَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى المَدِينَـةِ المُنَـوَّرَةِ بِنَـاءً عَلَـى طَلَـبِ الخَلِيفَـةِ الصِّـدِّيقِ، الَّـذِي كَانَ قَدِ انْتَهَـى مِنْ حَرْبِ المُرْتَـدِّينَ، وَالمُتَنَبِّئِينَ، وَمَانِعِـي الـزَّكَاةِ، وَكَسْـرِ شَوْكَتِهِـمْ، وَمَكَّنَ لِلإِسْلاَمِ، وَأَقَامَ الخِلاَفَةَ عَلَى رَكَائِزَ ثَابِتَـةٍ، فَرَجَعَـتْ لِلدَّوْلَةِ هَيْبَتُهَا، وَلِلْمَدِينَةِ مَرْكَزُهَا، وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ،

وَأَعَادَ الجَزِيرَةَ إِلَى حَوْزَةِ الإِسْلاَمِ جَهَّزَ الجُيُوشَ لِلْفَتْحِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ وَتَحْقِيقِ المُهِمَّةِ المُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِ المُسْلِمِينَ بِإِنْهَاءِ الظُّلْمِ القَائِمِ فِي الأَرْضِ كَيْ تَزُولَ العَوَائِقُ الَّتِي تَقِفُ فِي طَرِيقِ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ ، وَمِنْ خِلاَلِ تَحْقِيقِ المُهِمَّةِ يُشْغَلُ الأَعْرَابُ بِالفَتْحِ وَالجِهَادِ. وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هَذَا رَدَّ فِعْلٍ ضِدَّ الدُّوَلِ الَّتِي دَعَمَتِ المُرْتَدِّينَ أَثْنَاءَ رِدَّتِهِمْ، وَلاَ ضِدَّ العَرَبِ المُتَنَصِّرَةِ الَّتِي وَقَفَتْ بِجَانِبِ أَبْنَاءِ عَقِيدَتِهِمْ مِنَ الرُّومِ لاَ بِجَانِبِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ مِنَ العَرَبِ، كَمَا يَدَّعِي أَصْحَابُ العَصَبِيَّاتِ.

جَهَّزَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَرْبَعَةَ جُيُوشٍ ، يَقُودُ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وَاحِداً مِنْهَا، وَقَدْ نَزَلَ الجَابِيَةَ، وَوِجْهَتُهُ حِمْصُ، وَيَقُودُ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ الثَّانِيَ مِنْهَا، وَقَدْ نَزَلَ البَلْقَاءَ مَكَانَ عَمَّانَ اليَوْمَ، وَوِجْهَتُهُ دِمَشْقُ، وَيَقُودُ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ ثَالِثُهَا، وَقَدْ نَزَلَ مَكَانَ المَفْرَقِ اليَوْمَ، وَوِجْهَتُهُ الأُرْدُنُ، وَتَوَلَّى عَمْرُو بنُ العَاصِ إِمْرَةَ الجَيْشِ الرَّابِعِ ، وَقَدْ نَزَلَ وَادِي العَرَبَةِ، شَمَالَ خَلِيجِ العَقَبَةِ، وَوِجْهَتُهُ فِلِسْطِينُ.

كَانَ عَدَدُ أَفْرَادِ كُلِّ جَيْشٍ حَوَالِي خَمْسَةِ آلاَفٍ إِلَى سِتَّةِ

آلاَفِ مُقَاتِلٍ عَدَا جَيْشِ يَزِيدَ فَإِنَّهُ كَانَ يَضُمُّ سَبْعَةَ آلاَفٍ لأَنَّ وِجْهَتَهُ دِمَشْقُ مَقَرُّ الحُكْمِ الرُّومِيِّ فِي بِلاَدِ الشَّامِ ، وَفِي ضَاحِيَتِهَا جِلِّقُ مَقَرُّ الغَسَاسِنَةِ أَنْصَارِ الرُّومِ وَحُلَفَائِهِمْ. هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى سِتَّةِ آلاَفِ مُجَاهِدٍ بَقِيَتْ فِي جَنُوبِ بِلاَدِ الشَّامِ بِقِيَادَةِ عِكْرِمَةَ بنِ عَمْرِو بنِ هِشَامٍ لِتَتَدَخَّلَ فِي المَعْرَكَةِ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، وَالمَكَانِ المَطْلُوبِ مِنْهَا أَنْ تَدْعَمَهُ. وَالظُّرُوفُ هِيَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي تَجَمُّعِ المُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ مَعاً، أَو حُرُوبِهِمْ مُتَفَرِّقِينَ ضِدَّ جُيُوشٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ مُدُنٍ مُحَصَّنَةٍ.

تَحَرَّكَ الفَاتِحُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَاتِّجَاهٍ وَاحِدٍ، وَعَسْكَرُوا فِي أَمَاكِنَ قَرِيبَةٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، حَسْبَ الأَوَامِرِ المُعْطَاةِ إِلَيْهِمْ، وَحَيْثُ يُمْكِنُ تَجَمُّعُهُمْ سَرِيعاً إِذَا دَعَتْ أَسْبَابُ التَّجَمُّعِ وَالقِتَالِ مَعاً، وَكَانَ انْتِشَارُ هَذِهِ الجُيُوشِ طُولاَنِيّاً مِن الشَّمَالِ إِلَى الجَنُوبِ تَقْرِيباً كَيْ لاَ يَسْتَطِيعَ الرُّومُ الالْتِفَافَ خَلْفَ أَيٍّ مِنْهَا.

كَانَتْ خِطَّةُ الفَاتِحِينَ تَقْضِي القِيَامَ بِالتَّحَرُّشِ بِالرُّومِ لِيَرَوْا رَدَّ فِعْلِهِمْ فَيَضَعُوا الخِطَّةَ المُنَاسِبَةَ. وَكَانَ التَّحَرُّشُ بِالرُّومِ مِنْ مُهِمَّةِ عَمْرِو بنِ العَاصِ ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ فِي عِدَّةِ مَعَارِكَ انْتَصَرَ فِيهَا، وَجَاءَ مَدَدٌ لَهُ يُقَدَّرُ بِأَلْفِ مُقَاتِلٍ يَقُودُهُمْ

عَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. والتَقى الفَرِيقَانِ ثَانِيَةً فِي مَعْـرَكَتَيْنِ انْتَصَـرَ فِيهِمَـا المُسْلِمُـونَ رَغْـمَ ضَخَامَةِ أَعْدَادِ خُصُومِهِم الَّذِينَ خَلَّفُوا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَـةَ عَشَـرَ أَلْفَ قَتِيلٍ فِي سَاحَاتِ القِتَالِ.

وَحَشَدَ الرُّومُ حُشُوداً كَبِيرَةً لَصَدِّ المُجَاهِدِينَ وَفِي مُحَاوَلَـةٍ لِلاْحِتْفَاظِ عَلَى سُلْطَانِهِمْ فِي الشَّامِ وَتحَكُّمِهِمْ فِي أَهْلِهَا، وَرَدَّ الفَاتِحُـونَ عَلَـى ذَلِكَ الحَشْدِ بِطَلَـبِ المَـدَدِ مِنَ الخَلِيفَـةِ الصِّدِّيقِ الَّذِيْ أَمَرَ عِكْرِمَـةَ قَائِـدَ الاحْتِيَاطِ بِالانْضِمَـامِ إِلَـى إِخْوَانِهِ، كَمَا أَمَرَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ فِي العِرَاقِ بِالتَّوَجُّـهِ إِلَـى الشَّامِ وَالاْلْتِحَاقِ بِالفَـاتِحِينَ هُنَـاكَ وَقِيَادَةِ المَعْـرَكَةِ، وَفِـي الوَقْتِ نَفْسِهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى التَّطَوُّعِ وَالسَّيْرِ إِلَى الشَّامِ.

اسْتَشَـارَ أُمَـرَاءُ الجُنْـدِ بَعْضُهُـمْ بَعْضَـاً، فَأَشَـارَ عَلَيْهِـمْ عَمْرُو بنُ العَاصِ بِالقِتَالِ مُجْتَمِعِينَ، فَإِنَّ الكَثْرَةَ تَزِيدُ القُوَّةَ، وَتُخْفِي القِلَّةَ، وَالفِئَةُ الصَّغِيرَةُ تَتَنَاثَرُ أَمَامَ المَجْمُوعَةِ الكَبِيرَةِ، وَضَخَامَـةُ حُشُـودِ الـرُّومِ تَتَطَلَّـبُ التَكَتُّـلَ، فَوَافَـقَ الجَمِيعُ وَقَرَّرُوا خَوْضَ المَعْرَكَةِ مُجْتَمِعِينَ وَتَوَاعَدُوا مَيْدَانَ اليَرْمُوكِ، وَانْتِظَارَ دَعْمِ قُوَّاتَ خَالِـدٍ مِنَ العِـرَاقِ وَمَـدَدَ الخَلِيفَـةِ، أَوْ بِالأَحْرَى انْتِظَارَ وُصُولِ قَائِدِ المَعْرَكَةِ مِنَ العِرَاقِ.

وَصَلَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ بِقُوَاتِهِ مِنَ العِرَاقِ ، وَتسَلَّمَ القِيَادَةَ، وَنَظَّمَ الصُّفُوفَ فَكَانَ عَمْرُو بـنُ العَـاصِ عَلَـى المَيْمَنَـةِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى المَيْسَرَةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ عَلَى القَلْبِ، وَيُسَاعِدُهُ وَيَنُوبُ عَنْهُ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ. فَإِذَا كَانَتْ مَيْسَرَةُ يَزِيدَ مَحْمِيَّةً بِنَهْرِ اليَرْمُوكِ فَإِنَّ الضَّغْطَ الشَّـدِيدَ سَيَكُونُ عَلَى المَيْمَنَةِ حَيْثُ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِذْ كَانَتْ خِطَّةُ الرُّومِ ، أَوْ هَكَذَا يَقْضِي القِتَالُ، الضَّغْطُ عَلَى المَيْمَنَةِ لِحَصْرِ المُسْلِمِينَ بَيْنَ اليَرْمُوكِ وَوَادِي الرَّقَّادِ الَّذِيْ يَرْفِدُهُ هُنَاكَ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خِطَّةُ المُسْلِمِينَ المُضَادَّةُ الضَّغْطَ عَلَى مَيْسَرَةِ الرُّومِ لِحَصْرِهِمْ فِي المَكَانِ الَّذِيْ يُفَكِّرُ الرُّومُ حَصْرَ المُسْلِمِينَ فِيْهِ، وَهَذَا يَقَعُ عَلَى عَاتِقِ عَمْرِو بنِ العَاصِ أَيْضاً. فَعَمْـرٌ إِذَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَـقَّى ضَغْطَ الرُّومِ ، كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَصُدَّهُمْ وَيُلْجِئَهُمْ إِلَى التَّحَرُّكِ نَحْوَ مَيْمَنَتِهِمْ لِحَصْرِهِمْ هُنَاكَ، وَهَذَا مَا تَمَّ.

وَوَقَفَ أُمَرَاءُ الجُنْدِ وَرِجَالاَتُ القَوْمِ يَحُضُّونَ النَّاسَ عَلَى الجِهَادِ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ، وَيُبْدُونَ آرَاءَهُـمْ فِي طَرِيقَـةِ القِتَـالِ وَمُوَاجَهَـةِ الخَصْـمِ ، وَكَانَ مِمَّـا قَالَـهُ عَمْرُو بـنُ العَـاصِ يَومَذَاكَ: يَا أَيُّهَا المُسْلِمُونَ غُضُّوا الأَبْصَـارَ، وَاجْثُـوا عَلَـى الرُّكَبِ، وَاشْرَعُوا الرِّمَاحَ، فَإِذَا حَمَلُوا عَلَيْكُمْ فَأَمْهِلُوهُمْ حَتَّى

إِذَا رَكِبُوا أَطْرَافَ الأَسِنَّةِ فَثِبُوا عَلَيْهِمْ وَثْبَةَ الأَسَدِ، فَوَالَّذِي يَرْضَى الصِّدْقَ وَيُثَبِّتُ عَلَيْهِ، وَيَمْقُتُ الكَذِبَ، وَيَجْزِي بالإِحْسَانِ إِحْسَاناً، لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ المُسْلِمِينَ سَيَفْتَحُونَهَا كَفْراً كَفْراً[1] وَقَصْراً قَصْراً، فَلاَ يَهُولَنَّكُمْ جُمُوعُهُمْ وَلاَ عَدَدُهُمْ، فَإِنَّكُمْ لَوْ صَدَقْتُمُوهُمُ الشَّدَّ تَطَايَرُوا تَطَايُرَ أَوْلاَدِ الحَجَلِ.

وَقَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ جَاءَ البَرِيدُ بِوَفَاةِ الخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ، وَقِيَامِ الفَارُوقِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ بِعِبْءِ الخِلاَفَةِ.

مَعَ الخَلِيفَةِ الفَارُوقِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فِي فُتُوحِ الشَّامِ:

بَدَأَتْ مَعْرَكَةُ اليَرْمُوكِ، وَاشْتَدَّ ضَغْطُ الرُّومِ عَلَى جِهَةِ عَمْرِو بنِ العَاصِ وَوَضَعُوا أَكْثَرَ ثِقَلِهِمْ عَلَيْهَا، وَصَمَدَ لِعَدَدٍ مِنَ الهَجَمَاتِ، كَمَا اضْطَرَّ إِلَى التَّرَاجُعِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى يَأْتِيَهُ دَعْمُ الفُرْسَانِ، وَفِي اليَوْمِ الخَامِسِ قَامَ بِالهُجُومِ المُضَادِّ عَلَى مَيْسَرَةِ الرُّومِ الَّتِي يُؤَلِّفُ السَّلاَفُ مُعْظَمَهَا وَأَجْبَرَهُمْ عَلَى التَّرَاجُعِ والانْدِحَارِ نَحْوَ الجَنُوبِ الغَرْبِيِّ، فَحَصَرَهُمُ المُسْلِمُونَ هُنَاكَ بَيْنَ نَهْرِ اليَرْمُوكِ وَرَافِدِهِ الرَّقَّادِ وَحَصَدُوهُمْ،

---

(١) الكفر: المزرعة.

وَنصَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ ، وَكَانَتْ عَاقِبَةُ الرُّومِ خُسْرَاً . وَبِذَا كَانَ عَمْرُو بنُ العَاصِ رَكِيزَةً مِنْ رَكَائِزِ مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ ، وَأَحَدَ رِجَالِهَا البَارِزِينَ .

سَارَ الفاتِحُونَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ إِلَى دِمَشْقَ فَكَانَ القَائِدُ هُوَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ ، وَهُوَ عَلَى المَيْسَرَةِ وَمَعَهُ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَخَالِدُ بنُ الوَلِيدِ عَلَى القَلْبِ ، وَعَلَى المَيْمَنَةِ عَمْرُو بنُ العَاصِ وَمَعَهُ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَة ، وَكَانَ نُزُولُ عَمْرٍ عَلَى بَابِ تُومَا .

وَبَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ تَوَجَّهَ كُلُّ قَائِدٍ إِلَى وِجْهَتِهِ الأَصْلِيّةِ المُعَيَّنَةِ لَهُ ، حَيْثُ رَجَعَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى فِلِسْطِينَ حَتَّى يُنْهِي فَتْحَ مَا بَقِيَ مِنْ مَنَاطِقِهَا ، وَرَجَعَ كَذَلِكَ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ إِلَى الأَرْدُنِ ، وَكَانَ يُعَاوِنُ عَمْرَاً فِي قِتَالِهِ ، وَسَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ ، وَمَعَهُ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ إِلَى حِمْصَ لِمُتَابَعَةِ فَتْحِ الشَّمَالِ ، وَسَارَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى فِلِسْطِينَ لِإِنْهَاءِ وَضْعِ الرُّومِ فِيْهَا[1] ، وَلَقَدِ اتَّجَهَ إِلَى الجَنُوبِ مِنْهَا فَانْطَلَقَ

---

(١) المؤرخون على خلافٍ في سير الفتح ، وتتابع مراحل القتال ، فمنهم من يجعل أجنادين وفحل قبل اليرموك ومنهم من يعدّهما بعدها ، وكذلك مرج الصّفّر . ويذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن عمراً صالح أهل حلب وأنطاكية ، وافتتح قنسرين عنوة ، وهذا خطأ (سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٠) ، وكذلك ابن حجر العسقلاني في الإصابة ٣/ ٢ .

إِلَى أَجْنَادِينَ[1]، حَيْثُ يُرابِطُ الأَرْطَبُونُ، وَكَانَتْ لِلرُّومِ قُوَّةٌ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ وَأُخْرَى فِي الرَّمْلَةِ،وَكَانَتْ إِذَا جَاءَتْ قُوَّاتٌ دَاعِمَةٌ لِعَمْرِو بنِ العَاصِ أَمَرَهَا بالتَّوجُّهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ أَوْ إِلَى الرَّمْلَةِ لِيُشَاغِلُوا فِي تِلْكَ الجِهَاتِ خَوْفاً مِنْ دَعْمِهِمْ لِلأَرْطَبُونَ فِي أَجْنَادِينَ.

تَأَخَّرَ الفَتْحُ فِي أَجْنَادِينَ، وَسَارَتِ الرُّسُلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَلَمْ يَشْفِ أَحَدُهَا غَلِيلَ عَمْرٍ، فَسَارَ بِنَفْسِهِ بِاسْمِ رَسُولٍ، وَدَخَلَ عَلَى الأَرْطَبُونِ، وَجَرَى الحَدِيثُ بَيْنَهُمَا، اسْتَنْتَجَ الأَرْطَبُونُ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ إِنَّما هُوَ عَمْرٌ بِالذَّاتِ أَوْ أَنَّهُ شَخْصٌ ذُو قِيمةٍ وَأَثَرٍ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ مَا كُنْتُ لأُصِيبَ القَوْمَ بِأَمْرٍ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ، فَدَعَا حَارِساً فَسَارَّهُ وَأَمَرَهُ بِالفَتْكِ بِهِ فَقَالَ: اذْهَبْ فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا مَرَّ بِكَ فَاقْتُلْهُ، فَفَطِنَ عَمْرُو بنُ العَاصِ فَقَالَ لِلأَرْطَبُونَ: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكَ وَسَمِعْتَ كَلاَمِي، وَإِنِّي وَاحِدٌ مَنْ عَشَرَةٍ بَعَثَنَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِنَكُونَ مَعَ هَذَا الوَالِي لِنَشْهَدَ أُمُورَهُ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ آتِيكَ بِهِمْ لِيَسْمَعُوا كَلاَمَكَ وَيَرَوْا مَا رَأَيْتُ. فَقَالَ الأَرْطَبُونُ: نَعَمْ! فاذْهَبْ فَائِتِنِي بِهِمْ، وَدَعَا رَجُلاً فَسَارَّهُ

(١) موقع قريب من الفالوجة اليوم.

فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى فُلاَنٍ فَرُدَّهُ. وَقَامَ عَمْرُو بنُ العَاصِ فَرَجَعَ إِلى جَيْشِهِ، ثُمَّ تَحقَّقَ الأَرْطَبُونُ أَنَّهُ عَمْرُو بنُ العَاصِ نَفْسُهُ، فَقَالَ: خَدَعَنِي الرَّجُلُ، هذَا وَاللَّهِ أَدْهَى العَرَبِ. وَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ فَقَالَ: لِلَّهِ دَرُّ عَمْرٍ.

وَحَدَثَ قِتَالٌ عَظِيمٌ فِي أَجْنَادِينَ كَقِتَالِ اليَرْمُوكِ، ثُمَّ دَخَلَ المُسْلِمُونَ أَجْنَادِينَ، وَتَقَدَّمُوا نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَحَاصَرُوهَا، وَاضْطَرَّتِ الجُيُوشُ الإِسْلاَمِيَّةُ أَنْ تَجْتَمِعَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَتَفْرِضَ الحِصَارَ عَلَيْهَا حَتَّى أَجَابَ أَهْلُهَا إِلَى الصُّلْحِ بِشَرْطِ أَنْ تُسَلَّمَ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فَجَاءَهَا وَدَخَلَهَا، وَبَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ عَادَ كُلُّ أَمِيرٍ إِلَى مَكَانِهِ.

وَلَمَّا جَاءَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ، وَصَالَحَ أَهْلَ بَيْتِ المَقْدِسِ «إِيْلِيَاءَ»، وَكَتَبَ لَهُمُ الصُّلْحَ فِي الجَابِيَةِ شَهِدَ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَمُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ.

وَتُوفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ فِي طَاعُونِ عَمْوَاسَ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ، فَوَلِيَ أَمْرَ الشَّامِ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ بِأَمْرٍ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَأَلَحَّ أَمِيرُ الشَّامِ عَلَى الخَلِيفَةِ فِي غَزْوِ البَحْرِ

وَقُرْبِ الرُّومِ مِنْ حِمْصَ، وَقَالَ: إِنَّ قَرْيَةً مِنْ قُرَى حِمْصَ لَيَسْمَعُ أَهْلُهَا نُبَاحَ كِلاَبِهِمْ وَصِيَاحَ دَجَاجِهِمْ؛ حَتَّى كَادَ ذَلِكَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ عُمَرَ؛ فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ: صِفْ لِيَ البَحْرَ وَرَاكِبَهُ، فَإِنَّ نَفْسِي تُنَازِعُنِي إِلَيْهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو: إِنِّي رَأَيْتُ خَلْقاً كَبِيْراً يَرْكَبُهُ خَلْقٌ صَغِيرٌ، إِنْ رَكَنَ خَرَّقَ القُلُوبَ، وَإِنْ تَحَرَّكَ أَزَاغَ العُقُولَ، يَزْدَادُ فِيْهِ اليَقِينُ قِلَّةً، والشَّكُّ كَثْرَةً، هُمْ فِيْهِ كَدُودٍ عَلَى عُودٍ إِنْ مَالَ غَرِقَ، وَإِنْ نَجَا بَرِقَ[1].

فَلَمَّا قَرَأَهُ عُمَرُ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالحَقِّ لاَ أَحْمِلُ فِيْهِ مُسْلِماً أَبَداً[2].

فَتْحُ مِصْرَ:

وَلَمَّا انْتَهَى فَتْحُ الشَّامِ اسْتَأْذَنَ عَمْرُو بنُ العَاصِ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ فِي فَتْحِ مِصْرَ، وَكَانَ عُمَرُ مُتَخَوِّفاً فِي الأَمْرِ عَلَى المُسْلِمِينَ، لَكِنَّ ابنَ العَاصِ لَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ أَمْرَهَا عِنْدَهُ، وَيُخْبِرُهُ بِحَالِهَا، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِ فَتْحَهَا، حَتَّى رَكَنَ إِلَى ذَلِكَ عُمَرُ، فَعَقَدَ لَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلاَفِ رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ: سِرْ،

(١) برق: دهش وحار.
(٢) تاريخ الطبري.

وأَنَا مُسْتَخِيرُ اللَّهَ فِي مَسِيرِكَ، وَسَيَأْتِي إِلَيْكَ كِتَابِي سَرِيعاً - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالى - فَإِنْ أَدْرَكَكَ كِتَابِي وَأَمَرْتُكَ فِيهِ بِالانْصِرَافِ عَنْ مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَهَا أَوْ شَيْئاً مِنْ أَرْضِهَا فَانْصَرِفْ، وَإِنْ أَنْتَ دَخَلْتَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكَ كِتَابِي فَامْضِ لِوَجْهِكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاسْتَنْصِرْهُ. وَسَارَ عَمْرو، وَجَاءَهُ كِتَابُ عُمَرَ بِالانْصِرَافِ والرُّجُوعِ وَهُوَ فِي (رَفَحَ) وَعَرَفَ مَا فِيهِ بِثَاقِبِ نَظَرِهِ فَلَمْ يَأْخُذِ الكِتَابَ مِنْ الرَّسُولِ، وَظَلَّ يُدَافِعُهُ حَتَّى بَلَغَ قَرْيَةً فِيمَا بَيْنَ رَفَحَ وَالعَرِيشِ فَسَأَل عَنْهَا، فَقِيلَ إِنَّهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. فَدَعَا بِالكِتَابِ فَقَرَأَهُ عَلَى المُسْلِمِينَ. وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ كِتَابَ عُمَرَ لَحِقَنِي بَعْدَ أَنْ دَخَلْنَا أَرْضَ مِصْرَ فَسِيرُوا وَامْضُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ[1].

وَلَمَّا أَبْطَأَ فَتْحُ مِصْرَ عَلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَمِدُّهُ فَأَمَدَّهُ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ، عَلَى كُلِّ أَلْفِ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنِّي أَمْدَدْتُكَ بِأَرْبَعَةِ آلافِ رَجُلٍ عَلَى كُلِّ أَلْفِ رَجُلٍ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَقَامَ الأَلْفِ: الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ،

---

(١) النجوم الزاهرة: ١/ ٥. المقريزي: ١/ ٢٨٨.
كان عمرو بن العاص قد استأذن الخليفة في فتح مصر عندما جاء إلى الشام ودخل بيت المقدس بعد صلح أهلها ورجع عمر إلى المدينة، وانطلق عمرو إلى مصر.

وَالمِقْدَادُ بنُ عَمْرٍ، وَعُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وَمَسْلَمَةُ بنُ مُخَلَّدٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَكَ اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً وَلاَ تُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ.

خَرَجَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى مِصْرَ بَعْدَمَا رَجَعَ عُمَرُ إِلَى المَدِينَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ اليُونِ، وأَتْبَعَهُ الزُّبَيْرُ، فَاجْتَمَعَا، فَلَقِيَهُمْ هُنَاكَ أَبُو مَرْيَمَ جَاثِلِيقُ مِصْرَ وَمَعَهُ الأُسقُفُ فِي أَهْلِ النِّيَّاتِ بَعَثَهُ المُقَوْقِسُ لِمَنْعِ بِلاَدِهِمْ. فَلَمَّا نَزَلَ بِهِمْ عَمْرُو قَاتَلُوهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: لاَ تُعَجِّلونَا لِنُعْذِرَ إِلَيْكُمْ، وَتَرَوْنَ رَأْيَكُمْ بَعْدُ. فَكَفُّوا أَصْحَابَهُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو: إِنِّي بَارِزٌ فَلْيَبْرُزْ إِلَيَّ أَبُو مَرْيَمَ وَأَبُو مَرْيَامَ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَّنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَقَالَ لَهُمْ عَمْرُو: أَنْتُمَا رَاهِبَا هَذِهِ البَلْدَةِ فَاسْمَعَا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالحَقِّ وَأَمَرَهُ بِهِ، وَأَمَرَنَا بِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ وَقَدْ قَضَى الَّذِي عَلَيْهِ، وَتَرَكَنَا عَلَى الوَاضِحَةِ، وَكَانَ مِمَّا أَمَرَنَا بِهِ الإِعْذَارَ إِلَى النَّاسِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَجَابَنَا إِلَيْهِ فَمِثْلُنَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبْنَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ الجِزْيَةَ، وَبَذَلْنَا لَهُ المَنعَةَ، وَقَدْ أَعْلَمَنَا أَنَّنَا مُفْتَتِحُوكُمْ، وَأَوْصَانَا بِكُمْ حِفْظَاً لِرَحِمِنَا فِيكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ إِنْ أَجَبْتُمُونَا بِذَلِكَ ذِمَّةً إِلَى ذِمَّةٍ. وَمِمَّا عَهِدَ إِلَيْنَا أَمِيرُنَا: اسْتَوْصُوا بِالقِبْطِيِّينَ خَيْراً، فَإِنَّ رَسُولَ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِالقِبْطِيِّينَ خَيْرَاً، لأَنَّ لَهُمْ رَحِمَاً وَذِمَّةً. فَقَالُوا: قَرابَةٌ بَعِيدَةٌ لاَ يَصِلُ مِثْلَهَا إلاَّ الأَنْبِيَاءُ، مَعْرُوفَةٌ شَرِيفَةٌ، كَانَت ابْنَةَ مَلِكِنَا، وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ مَنْفَ وَالمُلْكُ فِيهِمْ، فَأُدِيلَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ عَيْنِ شَمْسٍ، فَقَتَلُوهُمْ وَسَلَبُوا مُلْكَهُمْ وَاغْتَرَبُوا، فَلِذَلِكَ صَارَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَرْحَبَاً بِهِ وَأَهْلاً، آمِنَّا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكَ. فَقَالَ عَمْرُو: إِنَّ مِثْلِي لاَ يُخْدَعُ، وَلَكِنِّي أُؤَجِّلُكُمَا ثَلاَثَاً لِتَنْظُرَا وَلِتُنَاظِرَا قَوْمَكُمَا، وَإِلاَّ نَاجَزْتُكُمْ، قَالاَ: زِدْنَا فَزَادَهُمْ يَوْمَاً، فَقَالاَ: زِدْنَا فَزَادَهُمْ يَوْمَاً، فَرَجَعَا إِلَى المُقَوْقِسِ فَهَمَّ، فَأَبَى أَرْطَبُونُ[1] أَنْ يُجِيبَهُمَا، وَأَمَرَ بِمُنَاهَدَتِهِمْ، فَقَالاَ لأَهْلِ مِصْرَ: أَمَّا نَحْنُ فَسَنَجْهَدُ أَنْ نَدْفَعَ عَنْكُمْ، وَلاَ نَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ بَقِيَتْ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ، فَلاَ تُصَابُونَ فِيهَا بِشَيْءٍ إِلاَّ رَجَوْنَا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمَانٌ. فَلَمْ يُفْجَأْ عَمْرَاً وَالزُّبَيْرَ إِلاَّ البَيَاتُ مِنْ (فَرْقَبَ)، وَعَمْرُو عَلَى عُدَّةٍ، فَلَقُوهُ فَقُتِلَ وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ رَكِبُوا أَكْسَاءَهُمْ[2]، وَقَصَدَ عَمْرُو والزُّبَيْرُ لِعَيْنِ شَمْسٍ، وَبِهَا

---

(١) هرب أرطبون من فلسطين بعد معركة أجنادين واتجه إلى مصر ليقاتل بأهلها المسلمين.

(٢) الأكساء: جمع كساء، ويقصد هنا أمتعتهم كلها.

جَمْعُهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى (الفَرَمَا)[1] أَبْرَهَةَ بنَ الصَّبَاحِ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا، وَبَعَثَ عَوْفَ بنَ مَالِكٍ إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لأَهْلِ مَدِينَتِهِ: إِنْ تَنْزِلُوا فَلَكُمُ الأَمَانُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَرَاسَلُوهُمْ، وَتَرَبَّصَ بِهِمْ أَهْلُ عَيْنِ شَمْسٍ، وَسَبَى المُسْلِمُونَ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ.

لَمَّا نَزَلَ عَمْرُو عَلَى القَوْمِ بِعَيْنِ شَمْسٍ، وَكَانَ المُلْكُ بَيْنَ القِبْطِ وَالنُّوبِ، وَنَزَلَ مَعَهُ الزُّبَيْرُ عَلَيْهَا. قَالَ أَهْلُ مِصْرَ لِمَلِكِهِمْ: مَا تُرِيدُ إِلَى قَوْمٍ فَلُّوا كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَغَلَبُوهُمْ عَلَى بِلاَدِهِمْ! صَالِحِ القَوْمَ وَاعْتَقِدْ مِنْهُمْ، وَلاَ تَعْرِضْ لَهُمْ، وَلاَ تُعَرِّضْنَا لَهُمْ - وَذَلِكَ فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ - فَأَبَى، وَنَاهَدُوهُمْ فَقَاتَلُوهُمْ، وَارْتَقَى الزُّبَيْرُ سُورَهَا، فَلَمَّا أَحَسُّوهُ فَتَحُوا البَابَ لِعَمْرٍ، وَخَرَجُوا إِلَيْهِ مُصَالِحِينَ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ، وَنَزَلَ الزُّبَيْرُ عَلَيْهِمْ عَنْوَةً حَتَّى خَرَجَ عَلَى عَمْرٍ مِنَ البَابِ مَعَهُمْ، فَاعْتَقَدُوا بَعْدَمَا أَشْرَفُوا عَلَى الهَلَكَةِ، فَأَجْرَوْا مَا أُخِذَ عَنْوَةً مَجْرَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ فَصَارُوا ذِمَّةً، وَكَانَ صُلْحُهُمْ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَعْطَى عَمْرُو بنُ

---

(١) الفرما: مدينة على ساحل البحر المتوسط على الجزء الشرقي منه حيث تكثر السباخ، وتنسب إلى الفرما أخي الإسكندر.

العَاص أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الأَمَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ وَصُلُبِهِمْ وَبَرِّهِمْ وَبَحْرِهِمْ؛ لاَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ يَنْتَقِصُ، وَلاَ يُسَاكِنُهُمُ النُّوبُ. وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ أَنْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى هَذَا الصُّلْحِ، وَانْتَهَتْ زِيَادَةُ نَهْرِهِمْ خَمْسِينَ أَلْفَ أَلْفٍ، وَعَلَيْهِمْ مَا جَنَى لُصُوتُهُمْ[1]، فَإِنْ أَبَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُجِيبَ رُفِعَ عَنْهُمْ مِنَ الجَزَاءِ بِقَدْرِهِمْ وَذِمَّتِنَا مِمَّنَ أَبَى بَرِيئَةٌ، وَإِنْ نَقَصَ نَهْرُهُمْ مِنْ غَايَتِهِ إِذَا انْتَهَى رُفِعَ عَنْهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَمَن دَخَلَ فِي صُلْحِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَالنُّوبِ فَلَهُ مِثْلُ مَالَهُمْ وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَيْهِمْ، وَمَنَ أَبَى وَاخْتَارَ الذَّهَابَ فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ، أَوْ يَخْرُجَ مِنْ سُلْطَانِنَا. عَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ أَثْلاَثاً فِي كُلِّ ثُلْثِ جِبَايَةٍ ثُلْثُ مَا عَلَيْهِمْ، عَلَى مَا فِي هَذَا الكِتَابِ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَّتُهُ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ وَذِمَّةُ الخَلِيفَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَذِمَمِ المُؤْمِنِينَ، وَعَلَى النَّوْبَةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا أَنْ يُعِينُوا بِكَذَا وَكَذَا رَأْساً وَكَذَا وَكَذَا فَرَساً، عَلَى أَلاَّ يُغْزَوْا وَلاَ يُمْنَعُوا مِنْ تِجَارَةٍ صَادِرَةٍ وَلاَ وَارِدَةٍ. شَهِدَ الزُّبَيْرُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَمُحَمَّدُ ابْنَاهُ. وَكَتَبَ وَرْدَانُ وَحَضَرَ[2].

---

(١) اللصوت: جمع لص.
(٢) تاريخ الطبري.

ثُمَّ أَرْسَلَ عَمْرُو جَيْشاً إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَيْثُ يُقِيمُ المُقَوقِسُ، وَحَاصَرَ الجَيْشُ المَدِينَةَ، وَاضْطَرَّ المُقَوْقِسُ إِلَى أَنْ يُصَالِحَ المُسْلِمِينَ عَلَى أَدَاءِ الجِزْيَةِ، وَاسْتَخْلَفَ عَمْرُو عَلَى المَدِينَةِ عَبْدَ اللَّهِ بنَ حُذَافَةَ. وَمَصَّرَ عَمْرُوَ مَدِينَةَ الفِسْطَاطِ مَكَانَ خَيْمَتِهِ حَيْثُ بُنِيَ المَسْجِدُ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ الآنَ، وَأُقِيمَتِ البُيُوتُ حَوْلَهُ.

وَأَرْسَلَ عَمْرُو قُوَّةً إِلَى الصَّعِيدِ بِإِمْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ سَعْدٍ بنِ أَبِي سَرْحٍ بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ الخَلِيفَةِ فَفَتَحَهَا، وَكَانَ الوَالِيَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ عُمَيْرَ بنَ وَهَبٍ الجُمَحِيَّ إِلَى (دِمْيَاطَ) و (تِنِّيسَ) وَمَا حَوْلَهُمَا فَصَالَحَ أَهْلَ تِلْكَ الجِهَاتِ.

ثُمَّ سَارَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى جِهَةِ الغَرْبِ فَفَتَحَ (بَرْقَةَ)، وَصَالَحَ أَهْلَهَا، وَأَرْسَلَ عُقْبَةَ بنَ نَافِعٍ فَفَتَحَ (زُوَيْلَةَ)، وَاتَّجَهَ نَحْوَ بِلَادِ النَّوْبَةِ. ثُمَّ انْطَلَقَ عَمْرُو إِلَى طَرَابُلُسَ فَفَتَحَهَا بَعْدَ حِصَارٍ دَامَ شَهْرَاً، كَمَا فَتَحَ (صبْرَاتَه) وَ (شَرُوسَ)، وَمَنَعَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بَنُ الخَطَّابِ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى جِهَةِ الغَرْبِ خَوْفاً عَلَى المُسْلِمِين.

لَمَّا فُتِحَتْ مِصْرُ بِغَيرِ عَهْد قَامَ الزُّبَيْرُ فَقَالَ: يَا عَمْرُو اقْسِمْهَا. فَأَبَى، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ لَتَقْسِمَنَّها كَمَا قَسَمَ رَسُولُ

اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَيْبَر. فَكَتَبَ عَمْرُو إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنين عُمَرَ فِي ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ يُبْقِيهَا وَلاَ يَقْسِمُهَا.

دَعْمُ الحِجَازِ:

وَفِي عَامِ ١٨هـ حَدَثَ فِي المَدِينَةِ وَالحِجَازِ قَحْطٌ عَظِيمٌ دَامَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، فَسُمِّيَتْ تِلْكَ السَّنَةُ عَامَ الرَّمَادَةِ لِأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَسْفِي تُرَاباً كَالرَّمَادِ. فَكَتَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى سَائِرِ الأَمْصَارِ يَسْتَغِيثُهُمْ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَكَانَ مِمَّنْ كَتَبَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو بنُ العَاصِ أَميرَ مِصْرَ فَقَالَ لَهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى العَاصِي بنِ العَاصِي. سَلاَمٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ أَفتَرَانِي هَالِكاً وَمَنْ قِبَلِي، وَتَعِيشُ أَنْتَ وَمَنْ قِبَلَكَ؟ فَيَا غَوْثَاهُ يَا غَوْثَاهُ! يَا غَوْثَاهُ!

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بنُ العَاصِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مِنْ عَمْرِو بنِ العَاصِ. سَلاَمٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. أَمَّا بَعْدُ، أَتَاكَ الغَوْثُ، فَلَبِّثْ لَبِّثْ، لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكَ بِعِيرٍ أَوَّلُهَا عِنْدَكَ وَآخِرُهَا عِنْدِي.

فَبَعَثَ فِي البَرِّ بِأَلْفِ بَعِيرٍ تَحْمِلُ الدَّقِيقَ، وَبَعَثَ فِي البَحْرِ بِعِشْرِينَ سَفِينَةً تَحْمِلُ الدَّقِيقَ وَالدُّهْنَ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِخَمْسَةِ آلاَفِ كِسَاءٍ.

خَلِيجُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ:

كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ أَنْ يَقْدُمَ عَلَيْهِ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ.

فَقَدِمُوا عَلَيْهِ.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا عَمْرُو، إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَتَحَ عَلَى المُسْلِمِينَ مِصْرَ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الخَيْرِ وَالطَّعَامِ، وَقَد أُلْقِيَ فِي رُوعِي لِمَا أَحْبَبْتُ مِنَ الرِّفْقِ بِأَهْلِ الحَرَمَيْنِ وَالتَّوْسِيعِ عَلَيْهِمْ حِينَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِصْرَ وَجَعَلَهَا قُوَّةً لَهُمْ وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ أَنْ أَحْفِرَ خَلِيجاً مِنْ نِيلِهَا حَتَّى يَسِيلَ فِي البَحْرِ فَهُوَ أَسْهَلُ لِمَا نُرِيدُ مِنْ حَمْلِ الطَّعَامِ إِلَى المَدِينَةِ وَمَكَّةَ، فَإِنَّ حَمْلَهُ عَلَى الظَّهْرِ يَبْعُدُ وَلاَ نَبْلُغُ مِنْهُ مَا نُرِيدُ، فَانْطَلِقْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَتَشَاوَرُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فِيهِ رَأْيُكُمْ.

فَانْطَلَقَ عَمْرُو فَأَخْبَرَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: نَتَخَوَّفُ أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذَا ضَرَرٌ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ، فَنَرَى أَنْ تُعَظِّمَ ذَلِكَ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَتَقُولَ:

إنَّ هَذَا الأَمْرَ لاَ يَعْتَدِلُ، وَلاَ يَكُونُ، وَلاَ نَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً.

فَرَجَعَ عَمْرُو إِلَى عُمَرَ، فَضَحِكَ عُمَرُ حِينَ رَآهُ وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا عَمْرُو وَإِلَى أَصْحَابِكَ حِينَ أَخْبَرْتَهُمْ بِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ حَفْرِ الخَلِيجِ فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: يَدْخُلُ فِي هَذَا ضَرَرٌ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ، فَنَرَى أَنْ تُعَظِّمَ ذَلِكَ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَتَقُولُ لَهُ: إنَّ هَذَا أَمْرٌ لاَ يَعْتَدِلُ، وَلاَ يَكُونُ، وَلاَ نَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً.

فَعَجِبَ عَمْرُو مِنْ قَوْلِ عُمَرَ وَقَالَ: صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كَانَ الأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: انْطَلِقْ يَا عَمْرُو بِعَزِيمَةٍ مِنِّي حَتَّى تَجِدَّ فِي ذَلِكَ وَلاَ يَأْتِي عَلَيْكَ الحَوْلُ حَتَّى تَفْرُغَ مِنْهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَانْصَرَفَ عَمْرُو وَجَمَعَ لِذَلِكَ مِنَ الفَعَلَةِ مَا بَلَغَ مِنْهُ مَا أَرَادَ، وَحَفَرَ الخَلِيجَ الَّذِي فِي جَانِبِ الفِسْطَاطِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ خَلِيجُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فَسَاقَهُ مِنَ النِّيلِ إِلَى القَلْزَمِ [1] فَلَمْ يَأْتِ الحَوْلُ حَتَّى جَرَتْ فِيهِ السُّفُنُ.

فَحَمَلَ فِيْهِ مَا أَرَادَ مِنَ الطَّعَامِ إِلَى المَدِينَةِ وَمَكَّةَ فَنَفَعَ اللَّهُ

---

(١) القلزم: البحر الأحمر.

بِذَلِكَ أَهْلَ الحَرَمَيْنِ . ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحْمِلُ فِيْهِ الطَّعَامَ حَتَّى حُمِلَ فِيْهِ بَعْدَ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ، ثُمَّ ضَيَّعَهُ الوُلاَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَتُرِكَ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الرَّمْلُ فَانْقَطَعَ فَصَارَ مُنْتَهَاهُ إِلَى ذَنَبِ التِّمْسَاحِ مِنْ نَاحِيَةِ بَطْحَاءِ القَلْزَمِ [١] .

شَكْوَى :

قَالَ أَنَسٌ : كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، هَذَا مُقَامُ العَائِذِ بِك .

قَالَ : وَمَا لَكَ؟

قَالَ : أَجْرَى عَمْرُو بنُ العَاصِ بِمِصْرَ الخَيْلَ ، فَأَقْبَلَتْ فَرَسِي ، فَلَمَّا رَآهَا النَّاسُ قَامَ مُحَمَّدُ بنُ عَمْرٍ، فَقَالَ : فَرَسِي وَرَبِّ الكَعْبَةِ .

فَلَمَّا دَنَا مِنِّي عَرَفْتُهُ فَقُلْتُ : فَرَسِي وَرَبِّ الكَعْبَةِ .

فَقَامَ إِلَيَّ يَضْرِبُنِي بالسَّوْطِ، وَيَقُولُ خُذْهَا وَأَنَا ابنُ الأَكْرَمِينَ .

وَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْراً أَبَاهُ فَخَشِيَ أَنْ آتِيَكَ فَحَبَسَنِي في السِّجْنِ فَانْفَلَتُّ مِنْهُ ، وَهَذَا حِينَ أَتَيْتُك .

---

(١) منتخب كنز العمال .

فَوَاللَّهِ مَا زَادَ عُمَرُ عَلَى أَنْ قَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَمْرٍ: إِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَأَقْبِلْ، وَأَقْبِلْ مَعَكَ بِابْنِكَ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ لِلْمِصْرِيِّ: أَقِمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ.

فَدَعَا عَمْرُو ابْنَهُ، فَقَالَ: أَأَحْدَثْتَ حَدَثاً؟ أَجَنَيْتَ جِنَايَةً؟.

قَالَ: لاَ. قَالَ: فَمَا بَالُ عُمَرَ يَكْتُبُ فِيْكَ؟

فَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ.

قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللَّهِ إِنَّا عِنْدَ عُمَرَ، إِذْ نَحْنُ بِعَمْرٍ وَقَدْ أَقْبَلَ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ، فَجَعَلَ عُمَرُ يَلْتَفِتُ هَلْ يَرَى ابْنَهُ، فَإِذَا هُوَ خَلْفَ أَبِيهِ. فَقَالَ: أَيْنَ المِصْرِيُّ؟.

قَالَ: هَا أَنَا ذَا.

قَالَ: دُونَكَ الدُّرَّةَ فَاضْرِبْ بِهَا ابنَ الأَكْرَمِينَ.

فَضَرَبَهُ حَتَّى أَثْخَنَهُ وَنَحْنُ نَشْتَهِي أَنْ يَضْرِبَهُ، فَلَمْ يَنْزِعْ حَتَّى أَحْبَبْنَا أَنْ يَنْزِعَ مِنْ كَثْرَةِ مَا ضَرَبَهُ، وَعُمَرُ يَقُولُ: اضْرِبْ ابنَ الأَكْرَمِينَ.

ثُمَّ قَالَ: أَجِلْهَا عَلَى صَلْعَةِ عَمْرٍ، فَوَاللَّهِ مَا ضَرَبَكَ إِلاَّ بِفَضْلِ سُلْطَانِهِ.

قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَقَدْ اسْتَوْفَيْتُ وَاشْتَفَيْتُ.

وَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَدْ ضَرَبْتُ مَنْ ضَرَبَنِي.

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ ضَرَبْتَهُ مَا حُلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تَدَعَهُ.

أَيَا عَمْرُو! مَتَى تَعَبَّدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً؟

فَجَعَلَ يَعْتَذِرُ وَيَقُولُ: إِنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِهَذَا.

ثُمَّ التَفَتَ عُمَرُ إِلَى المِصْرِيِّ فَقَالَ: انْصَرِفْ رَاشِداً فَإِنْ رَابَكَ رَيْبٌ فَاكْتُبْ إِلَيَّ[1].

وَمِنَ الغَرِيبِ أَنَّ النَّاسَ يَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ القِصَّةِ عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِ عَمْرٍ وَعَلَى عَدَالَةِ عُمَرَ، فَالثَّانِيَةُ صَحِيحَةٌ وَهِيَ طَبِيعَةُ عُمَرَ، وَأَصْلٌ عِنْدَ المُؤْمِنِينَ، وَالأُولَى غَيْرُ صَحِيحَةٍ إِذِ اعْتَرَفَ عَمْرُو بِالحَقِّ، وَلَمْ يُجَادِلْ، وَاعْتَذَرَ وَهَذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾[2]. لَمْ يُنَاقِشْ، وَلَمْ يُرَاوِغْ، وَهُوَ أَدْهَى النَّاسِ،

---

(١) ابن الجوزي.

(٢) سورة آل عمران ١٣٥ ـ ١٣٦.

وَلَمْ يَخْشَ عُمَرَ كَمَا يَتَصَوَّرُ بَعْضُهُمْ وَإِنَّمَا رَبَّ عُمَرَ.

مَعَ النِّيلِ :

وَقَالَ ابنُ عَبْدِ الحَكَمِ : لَمَّا فَتَحَ عَمْرُو بنُ العَاصِ مِصْرَ أَتَى أَهلُـهَا إِلَيْهِ حِينَ دَخَل (بُؤنَةَ)[1] فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الأَمِيرُ إِنَّ لِنِيلِنَا هَذَا سُنَّةٌ لاَ يَجْرِي إِلاَّ بِهَا ، فَقَالَ لَهُمْ : وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا : إِنَّهُ إِذَا كَانَ لِثِنْتَيْ عَشَرَةَ لَيْلَةً تَخْلُو مِنْ هَذَا الشَّهْرِ عَمِدْنَا إِلَى جَارِيَةٍ بِكْرٍ مِنْ عِنْدِ أَبَوَيْهَا ، فَأَرْضَيْنَا أَبَوَيْهَا وَأَخَذْنَاهَا ، وَجعَلْنَا عَلَيْهَا مِنَ الحُلِيِّ وَالثِّيَابِ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ ، ثُمَّ أَلْقَيْنَاهَا فِي النِّيلِ فَيَجْرِي . فَقَالَ لَهُمْ عَمْرُو : إِنَّ هَذَا لاَ يَكُونُ فِي الإِسْلاَمِ ، وَإِنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، فَأَقَامُوا (بُؤْنَةَ) وَ (أَبِيبَ)[2] وَ (مَسرِي)[3] وَهُوَ لاَ يَجْرِي قَلِيلاً وَلاَ كَثِيراً حَتَّى هَمُّوا بِالجَلاَءِ . فَلَمَّا رَأَى عَمْرُو ذَلِكَ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ قَدْ أَصَبْتَ ، إِنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبِطَاقَةٍ فَأَلْقِهَا فِي دَاخِلِ النِّيلِ إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي . فَلَمَّا قَدِمَ الكِتَابُ إِلَى عَمْرٍ ، فَتَحَ

---

(١) بونة : شهر من أشهر القبط يبدأ من ٢٥ آيار حتى ٢٣ حزيران .
(٢) أبيب : شهر من أشهر القبط يبدأ من ذط حزيران حتى ٢٣ تموز .
(٣) سري : شهر من أشهر القبط يبدأ من ٢٤ تموز حتى ٢٣ آب .

البِطَاقَةَ فَإِذَا فِيْهَا : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى نِيلِ مِصْرَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنْ كُنْتَ تَجْرِي مِنْ قِبَلِكَ فَلاَ تَجْرِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ هُوَ الَّذِي يُجْرِيكَ فَنَسْأَلُ الوَاحِدَ القَهَّارَ أَنْ يُجْرِيكَ.

فَعَرَّفَهُمْ عَمْرُو بِكِتَابِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَبِالبِطَاقَةِ، ثُمَّ أَلْقَى عَمْرُو البِطَاقَةَ فِي النِّيلِ قَبْلَ يَوْمِ الصَّلِيبِ[1] بِيَوْمٍ، وَقَدْ تَهَيَّأَ أَهْلُ مِصْرَ لِلْجَلاَءِ وَالخُرُوجِ مِنْهَا لأَنَّهُ لاَ يَقُومُ بِمَصْلَحَتِهِمْ فِيْهَا إِلاَّ النِّيلُ فَأَصْبَحُوا يَوْمَ الصَّلِيبِ وَقَدْ أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعاً فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَطَعَ تِلْكَ السُّنَّةَ السُّوءَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ[2].

وَتُوفِّيَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عَامَ ٢٣ هـ وَعَمْرُو بنُ العَاصِ وَالِياً عَلَى مِصْرَ مِنْ قِبَلِهِ.

---

(١) يوم الصليب عند القبط هو اليوم السابع عشر من شهر (تون) وهو ما يعادل ١٣ أيلول، وهو قبل يوم الصليب عند السريان بأسبوع، وفي هذا الوقت يكون فيضان النيل قد انتهى وبدأ النهر يتناقص.

(٢) خطط المقريزي ١/ ٥٨ وتاريخ الخلفاء ص ٤٩، والنجوم الزاهرة ١/ ٣٥.

مَعَ الخَلِيفَةِ ذِي النُّورَيْنِ عُثَمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تَوَلَّى أَمْرَ الخِلاَفَةِ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ أَمِيرُ مِصْرَ. وَكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ مَنَعَ وَالِيَهُ مِنَ الانْسِيَاحِ نَحْوَ الغَرْبِ في إفْرِيقِيَّةَ، فَلَمَّا تَوَلَّى عُثْمَانُ سَمَحَ لَهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ قُوَّةً بِإِمْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ بن سَعْدِ بن أَبِي سرحٍ، فَاجْتَازَ طَرَابُلْسَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى سُفُنٍ لِلرُّومِ كَانَتْ رَاسِيَةً هُنَاكَ عَلَى الشَّاطِىءِ، وَوَاصَلَ سَيْرَهُ فِي إفْرِيقِيَّةَ (تُونُسَ)، وَالتَقَى بِجُيُوشٍ لِلْبِيزَنْطِيينَ فِي مَوْقِعٍ يُقَالَ لَهُ (سُبَيْطِلَةَ) فِي جَنُوبِ غَرْبِي مَوْقِعِ (القَيْرَوَانِ) الَّتِي لَمْ تَكُنْ قَدْ أُسِّسَتْ، وَقَدْ قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ، وَكَانَ مَعَ المُجَاهِدِينَ فِي تِلْكَ المَوْقِعَةِ، قَتَلَ القَائِدَ البِيزَنْطِيَّ (جَرْجِيرَ)، وَعَقَدَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَعْدٍ بن أَبِي سَرْحٍ مُعَاهَدَةً مَعَ البِيزَنْطِيينَ مُقَابِلَ جِزْيَةٍ سَنَوِيَّةٍ يَدْفَعُونَهَا مُقَابِلَ أَنْ يُخْلِيَ إفْرِيقِيَّةَ (تُونُسَ) وَذَلِكَ لأَنَّهُ اضْطَرَّ أَنْ يَسِيرَ إِلَى مِصْرَ لِمُوَاجَهَةِ النُّوبَةِ الَّذِينَ هَدَّدُوا مِصْرَ مِنْ نَاحِيَةِ الجَنُوبِ.

وَفِي عَامِ ٢٧ هـ عَزَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ عِنْ

مِصْرَ عَمْرَو بنَ العَاصِ ، وَأَعْطَى الوِلاَيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بن سَعْدٍ بن أَبِي سَرْحٍ ، فَسَارَ عَمْرُو مِنْ مِصْرَ إِلَى الحِجَازِ حَيْثُ مَرَّ عَلَى الخَلِيفَةِ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَعَاتَبَهُ ، وَانْطَلَقَ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ حَيْثُ أَقَامَ فِيهَا ، وَبَقِيَ حَتَّى انْتَهَتْ خِلاَفَةُ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

مَعَ الخَلِيفَةِ عَلِيٍّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بُويِعَ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِالخِلاَفَةِ وَعَمْرُو بنُ العَاصِ مُقِيمٌ فِي مَكَّةَ وَعِنْدَهُ الرَّغْبَةُ لِلْعَوْدَةِ إِلَى إِمْرَةِ مِصْرَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -، وَلَكِنَّهُ لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا فِي خِلاَفَةِ عَلِيٍّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، بَلْ إِنْ كَانَ يَحْلَمُ بِهَا مِنْ قَبْلُ فَإِنَّ حِلْمَهُ قَدْ تَبَخَّر بِتَسَلُّمِ عَلِيٍّ الخِلاَفَةَ لِذَا بَقِيَ مُقِيماً فِي مَكَّةَ ، لأَنَّ الأَنْظَارَ كَانَتْ تَتَجِهُ لِلَّذِينَ لَدَيْهِمْ حَمَاسَةٌ ، وَعَمْرُو كَانَ قَابِعاً فِي مَكَّةَ ، وَالأَحَدَاثُ عِنْدَمَا تَعْصِفُ لاَ يُنَاسِبُهَا إِلاَّ أَصْحَابُ الحَمَاسَةِ ، وَهَذَا مَا يُرِيدُهُ الخَلِيفَةُ الجَدِيدُ.

فَلَمَّا حَدَثَ الخِلاَفُ ، وَوَقَعَتْ مَعْرَكَةُ الجَمَلِ ، وَبَقِيَ وَالِي الشَّامِ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى مَوْقِفِهِ مُتَمَسِّكاً بِالإِمْرَةِ ، وَيُطَالِبُ الخَلِيفَةَ بِقَتَلَةِ عُثْمَانَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَسِيرُ مَعَهُ أَهْلُ وِلاَيَتِهِ حَيْثُ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِمُ الأَخْبَارُ إِلاَّ مُتَأَخِّرَةً ، وَلاَ

يَسْمَعُونَ رَأْيَ الخَلِيفَةِ وَحُجَّتَهُ، وَإِنَّمَا حُجَّةَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَهُ.

دَعَا عَمْرُو بنُ العَاصِ وَلَدَيْهِ عَبْدَ اللَّهِ وَمُحَمَّداً فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ رَأْياً، وَلَسْتُمَا بِاللَّذَيْنِ تَرُدَّانِي عَنْهُ، وَلَكِنْ أَشِيرَا عَلَيَّ، إِنِّي رَأَيْتُ العَرَبَ صَارُوا غَارَيْنِ[1] يَضْطَرِبَانِ، فَأَنَا طَارِحٌ نَفْسِي بَيْنَ جَزَّارِي مَكَّةَ، وَلَسْتُ أَرْضَى بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ، فَإِلَى أَيِّ الفَرِيقَيْنِ أَعْمَدُ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنْ كُنْتَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَإِلَى عَلِيٍّ، قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، إِنِّي إِنْ أَتَيْتُهُ، قَالَ لِي: إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَإِنْ أَتَيْتُ مُعَاوِيَةَ، خَلَطَنِي بِنَفْسِهِ، وَشَرَكَنِي فِي أَمْرِهِ، فَأَتَى مُعَاوِيَةَ[2].

وَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: إِنَّكَ أَشَرْتَ عَلَيَّ بِالقُعُودِ، وَهُوَ خَيْرٌ لِي فِي آخِرَتِي. وَأَمَّا أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، فَأَشَرْتَ عَلَيَّ بِمَا أَنْبَهُ لِذِكْرِي، ارْتَحِلاَ، فَأَتَى مُعَاوِيَةَ، فَوَجَدَهُ يَقُصُّ وَيُذَكِّرُ أَهْلَ الشَّامِ فِي دَمِ الشَّهِيدِ. فَقَالَ لَهُ: يَا مُعَاوِيَةُ قَدْ أَحْرَقْتَ كَبِدِي بِقَصَصِكَ، أَتُرَى إِنْ خَالَفْنَا عَلِيّاً لِفَضْلٍ مِنَّا عَلَيْهِ، لاَ وَاللَّهِ! إِنْ هِيَ إِلاَّ الدُّنْيَا نَتَكَالَبُ عَلَيْهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَتَقْطَعَنَّ لِي مِنْ

---

(١) غاران: فريقان.

(٢) تاريخ دمشق ـ ابن عساكر. ١٣/ ٢٦٠، وذلك لأن علياً خليفة على حين أن معاوية أمير معزول يرى انضمام ابن العاص إليه كبيراً.

دُنْيَاكَ أَوْ لأُنَـابِذَنَّكَ، فَأَعْطَاهُ مِصْـرَ. وَقَـدْ كَانَ أَهْلُهَـا بَعَثُـوا بِطَاعَتِهِمْ إِلَى عَلِيٍّ[1].

وَيُرْوَى أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَعَمْـرَاً قَدْ كَتَبَـا بَيْنَهُمَـا عَهْـدَاً فِي بَيْتِ المَقْدِسِ وَقَدْ جَاءَ فِيْهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَذَا مَا تَعَاهَدَ عَلَيْهِ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرُو بنُ العَـاصِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ قَتْلِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّـانَ وَحَمَّـلَ كُلُّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَـا صَاحِبَـهُ الأَمَانَـةَ، إِنَّ بَيْنَنَـا عَهْـدَ اللَّـهِ عَلَـى التَّنَاصُـرِ وَالتَّخَالُصِ وَالتَّنَاصُحِ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالإِسْـلاَمِ ، وَلاَ يَخْـذُلُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ وَلاَ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ وَلِيجَةً ، وَلاَ يَحُولُ بَيْنَنَا وَلَدٌ وَلاَ وَالِدٌ أَبَدَاً مَا حَيِينَا فِيمَا اسْتَطَعْنَاهُ ، فَإِذَا فُتِحَتْ مِصْرُ فَإِنَّ عَمْرَاً عَلَى أَرْضِهَا وَإِمَارَتُهُ الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ[2] ، وَبَيْنَنَا التَّنَاصُحُ وَالتَّوَازُرُ وَالتَّعَاوُنُ عَلَى مَا نَابَنَا مِنَ الأُمُورِ، وَمُعَاوِيَةُ أَمِيرٌ عَلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ فِي النَّاسِ وَفِي عَامَّـةِ الأَمْرِ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ الأُمَّـةَ ، فَإِذَا اجْتَمَعَـتِ الأُمَّـةُ فَإِنَّهُمَـا يَدْخُلاَنِ فِي أَحْسَنِ أَمْرِهَا عَلَى أَحْسَنِ الَّذِي بَيْنَهُمَا فِي أَمْرِ اللَّـهِ

---

(١) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ٣/ ٧٢.

(٢) أمير المؤمنين : يعني عمر بن الخطاب ، فمعاوية لم يناد بأمير المؤمنين إلا عام ٤١ بعد تنازل الحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، له.

الَّذِي بَيْنَهُمَا مِنَ الشَّرْطِ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. وَكَتَبَ وَرْدَانُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاَثِينَ[1].

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ صِفِّينَ. وَكَانَ عَمْرُو بنُ العَاصِ يُبَاشِرُ القِتَالَ فِي القَلْبِ أَيَّامَ صِفِّينَ بِنَفْسِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ مِنْ تِلْكَ الأَيَّامِ اقْتَتَلَ أَهْلُ العِرَاقِ وَأَهْلُ الشَّامِ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، فَإِذَا كَتِيبَةٌ خَشْنَاءُ مِنْ خَلْفِ صُفُوفِنَا[2] أَرَاهُمْ خَمْسَمائَةٍ فِيْهَا عَمْرُو بنُ العَاصِ، وَيُقْبِلُ عَلِيٌّ فِي كَتِيبَةٍ أُخْرَى نَحْوٍ مِنْ عَدَدِ الَّذِيْ مَعَ عَمْرِو بنِ العَاصِ، فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى كَثُرَتِ القَتْلَى بَيْنَهُمْ، ثُمَّ صَاحَ عَمْرُو بِأَصْحَابِهِ الأَرْضَ يَا أَهْلَ الشَّامِ فَتَرَجَّلُوا، وَدَبَّ بِهِمْ، وَتَرَجَّلَ أَهْلُ العِرَاقِ، فَنَظَرْتُ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ يُبَاشِرُ القِتَالَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَصَبَرْنَا فِي مَوَاطِنَ ضَنْكٍ
وَخُطُوبٍ تُرِي البَيَاضَ الوَلِيدَا

وَيُقْبِلُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ فَخَلَصَ إِلَى عَمْرٍ وَضَرَبَهُ

---

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد الجزء الرابع - القسم الثاني ٢ - ٣. غير أن في هذا خطأ، فهذا يجب أن يكون قبل معركة صفين، وقد جرت معركة صفين في النصف الثاني من شهر صفر من عام ٣٧ هـ، فهي قبل تاريخ هذا الاتفاق، فيجب الانتباه إلى هذا.

(٢) تعود إلى راوي الخبر.

ضَرْبَةً جَرَحَهُ عَلَى العَاتِقِ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا أَبُو السَّمْرَاءِ، وَيُدْرِكُهُ عَمْرُو فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَثْبَتَهُ، وَانْحَازَ عَمْرُو فِي أَصْحَابِهِ وَانْحَازَ أَصْحَابُهُ. قَالَ: أَخبرَنَا مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ عَنْ يَحْيَى بنِ شِبْلٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى عَمْرِو ابن العَاصِ يَوْمَ صِفِّينَ، وَقَدْ صُفَّتْ لَهُ الكَرَادِيسُ يَصُفُّ النَّاسَ بِنَفْسِهِ صُفُوفاً، وَيَقُولُ: كَقَصِّ الشَّارِبِ، وَهُوَ حَاسِرٌ، وَأَسْمَعُهُ وَأَنَا مِنْهُ قَرِيبٌ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالشَّيْخِ الأَزْدِيِّ أَوِ الدَّجَّالِ: يَعْنِي هَاشِمَ بنَ عُتْبَةَ[1]. قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَعْمَرُ بنُ رَاشِدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: اقْتَتَلَ النَّاسُ بِصِفِّينَ قِتَالاً شَدِيداً لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مِثْلُهُ قَطُّ حَتَّى كَرِهَ أَهْلُ الشَّامِ وَأَهْلُ العِرَاقِ القِتَالَ وَمَلُّوهُ مِنْ طُولِ تَبَاذُلِهِمُ

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ويُعرف بالرّغال، كان من أصحاب عليّ، وكان من أهل البأس، وقتل يوم صفين، وكانت عينه قد فقئت يوم اليرموك، وبقي بعينٍ واحدةٍ، ولذا شبهه بالدّجال أو هذا وجه الشبه كل منهما بعينٍ واحدةٍ.
أما ما يقال: إنّ علياً صرع عمراً فكشف سوأته فحوّل وجهه وتركه وبذا نجا عمرو فهذا افتراء ومن أكاذيب الرواة، وأحاديث القصاص، يُزّينون القصص ليُقبل الناس على أحاديثهم والاستماع إليهم، ويجب ألا ننسى أغراض بعضهم. وأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعزّ من هذا وأجلّ.

السَّيْفِ. فَقَالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى القِتَالِ، لِمَعَاوِيَةَ: هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي فَتَأْمُرَ رِجَالاً بِنَشْرِ المَصَاحِفِ، ثُمَّ يَقُولُونَ يَا أَهْلَ العِرَاقِ نَدْعُوكُمْ إِلَى القُرآنِ وَإِلَى مَا فِي فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ أَهْلُ العِرَاقِ وَلاَ يَزِيدُ ذَلِكَ أَهْلَ الشَّامِ إِلاَّ اسْتِجْمَاعاً، فَأَطَاعَهُ مُعَاوِيَةُ فَفَعَلَ. وَأَمَرَ عَمْرٌ رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقُرِىءَ المُصْحَفُ ثُمَّ نَادَى: يَا أَهْلَ العِرَاقِ نَدْعُوكُمْ إِلَى القُرْآنِ. فَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِرَاقِ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: أَوَلَسْنَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَبَيْعَتِنَا؟ وَقَالَ آخَرُونَ: أَجِبْنَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ. فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَهْنَهُمْ وَكَرَاهَتَهُمْ لِلْقِتَالِ قَارَبَ مُعَاوِيَةَ فِيمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ وَاخْتَلَفَ بَيْنَهُمُ الرُّسُلُ، فَقَالَ عَلِيٌّ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ: قَدْ قَبِلْنَا كِتَابَ اللَّهِ فَمَنْ يَحكُم بِكِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ؟ قَالَ: نَأْخُذُ رَجُلاً مِنَّا تَخْتَارُهُ وَتَأْخُذُ مِنْكُمْ رَجُلاً تَخْتَارُهُ. فَاخْتَارَ مُعَاوِيَةُ عَمْرَو بنَ العَاصِ ، وَاخْتَارَ عَلِيٌّ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ[1]. وَحُدِّدَ مَوْعِدُ لِقَاءِ الحكَمَيْنِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ في دَوْمَةِ الجَنْدِلِ أَي أَنَّ المَوْعِدَ قَدْ أُجِّلَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ إِذْ كَانَ قِتَالُ صِفِّينَ فِي صَفَرَ، وَاجْتِمَاعُ الحكَمَيْنِ فِي رَمَضَانَ[2].

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد: الجزء ٤ القسم الثاني ص ٣ و ٤.
(٢) في هذه الأثناء انشقت الخوارج عن علي وقاتلهم في النهروان.

أَرْسَلَ كُلُّ طَرَفٍ الحَكَمَ مَعَ أَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ . وَلَمْ يَتَّفِقِ الحَكَمَانِ عَلَى اخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ غَيْرِ عَلِيٍّ ، وَقَدْ عُرِضَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ وَغَيْرُهُمَا ، وَلَمْ يَحْدُثِ اتِّفَاقٌ ، بَلْ أَصَرَّ أَنْصَارُ عَلِيٍّ عَلَى خِلاَفَةِ عَلِيٍّ وَأَنَّ مُعَاوِيَةَ وَالٍ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ كَيْ تَجْتَمِعَ كَلِمَةُ الأُمَّةِ ، وَيُمكِنَ تَنْفِيذُ الأَحْكَامِ وَإِقَامَةُ الحُدُودِ ، وَأَلَحَّ جَمَاعَةُ مُعَاوِيَةَ عَلَى إِقَامَةِ الحُدُودِ عَلَى قَتَلَةِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ حَتَّى نَطْمَئِنَ فَنُعْطِيَ الطَّاعَةَ ، وَخَرَجُوا عَلَى مَا دَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ خِلاَفٍ[1] .

---

(١) كل ما قيل غير ذلك فهو ليس بصحيح . فالقول بخلع علي ومعاوية قول غريب وشاذ ، فعليّ خليفة ومعاوية والٍ فكيف يتعادل الخلع من الخلافة والخلع من الإمارة . ولم يُناد معاوية بالخلافة حتى تنازل له الحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، عام ٤١ هـ.

وإن الصورة التي أعطيت لكلام الحكمين بعيدةً عن الحقيقة إذ لم يكن أبو موسى الأشعري على هذه الصورة من البساطة والسذاجة ولم يكن في الوقت نفسه عمرو بن العاص على هذه الصورة من قلة الدين واللامبالاة بالخلق . وكلاهما صحابي أعزّ وأسمى من هذه الصور التي أعطيت لهم من قبل المغرضين والقصاص ورواة الأخبار الذين أخذوا ممن قصّ عليهم . وربما بعضهم كالطبري رحمه الله قد روى الروايات وسندها لأصحابها كي تتحقق من الخبر بعد معرفة الرجال الذي رووا الأحداث . ونلاحظ أنهم اختلقوا أحداثاً وقالوا : إن عمراً كان يقدم أبا موسى ، ويقول له : أنت أسن مني ، ويذكرون تحذير عبد الله بن عباس لأبي موسى من هذا التصرف . وما ذلك إلاّ لأنهم يتصورون أن أبا موسى أسنّ من عمر ، والواقع أن عمراً أكبر سناً من أبي موسى بأكثر من عشرين سنة ، ومما يؤسف له أن شيوخ المؤرخين وغالبيتهم قد نقلوا هذا من غير تحقيق ـ مع الأسف ـ.

سَارَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إلى مِصْرَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَدْخُلَهَا بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بنِ أَبي بكرٍ الوَالِي عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ[1].

رَأى الخَوَارِجُ صَلاَحَ الأُمَّةِ بِقَتْلِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَمْرِو بنِ العَاصِ، وَهَذَا هُوَ الضَّلاَلُ، وَتَعَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُلْجَمٍ بِقَتْلِ عَلِيٍّ، وَتَعَهَدَ البُرَكُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بِقَتْلِ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَخَذَ عَمْرُو بنُ بَكْرٍ عَلَى نَفْسِهِ قَتْلَ عَمْرِو بنِ العَاصِ، وَتَوَاعَدُوا أَنْ تَكُونَ لَيْلَةُ التَّنْفِيذِ هِيَ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَسَارَ كُلٌّ فِي طَرِيقِه حَتَّى تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَجَاءَتْ لَيْلَةُ التَّنْفِيذِ، وَقُتِلَ عَلِيٌّ، وَأُصِيبَ مُعَاوِيَةُ فِي إِلْيَتِهِ. وَأَمَّا عَمْرُو بنُ العَاصِ فَقَدِ اشْتَكَى بَطْنَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ،

---

(١) كان أهل مصر قد بعثوا بالبيعة لعلي بن أبي طالب، وسلّموا أمرهم لمحمد بن أبي حذيفة الذي أخذ البيعة لعلي غير أنه قتل، فأرسل علي والياً على مصر قيس بن سعد بن عبادة فملك مصر، وساس أهلها، فحدث خلاف في الرأي فغادرها وسار إلى الخليفة، فأرسل علي بن أبي طالب إلى مصر محمد بن أبي بكر ليتولّى أمرها فقتل عام ٣٨، وتسلّم الولاية عمرو بن العاص، ولم يصل إليها الأشتر النخعيّ إذ هلك في طريقه إليها فقيل مات مسموماً، وكان في مهمة تولّي إمرة مصر لعلي بن أبي طالبٍ مكان محمد بن أبي بكر الذي لم يستطع أن يسوس أهلها.

وَلَمْ يَخْرُجْ لِلصَّلاَةِ، وَأَمَرَ صَاحِبَ شُرْطَتِهِ خَارِجَةَ بنَ حُذَافَةَ أَنْ يُصلِّيَ بِالنَّاسِ، فَشَدَّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ فقَتَلَهُ وَهُوَ يظُنُّ أَنَّهُ عَمْرُو، وَعِنْدَمَا أُتِيَ بِهِ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ قَالَ لَهُ: أَرَدْتَنِي وَأَرَادَ اللَّهُ خَارِجَةَ، ثُمَّ قَتَلَهُ.

بَايَعَ أَهْلُ العِرَاقِ بَعْدَ مَقْتَلِ عَلِيٍّ ابْنَهُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ إِنَّ الحَسَنَ قَدْ رَأَى حَقْنَ دِمَاءِ المُسْلِمِين فَتَنَازَلَ لِمُعَاوِيَةَ الَّذِي أَصْبَحَ بَعْدَهَا خَلِيفَةَ المُسْلِمِينَ، وَانْتَقَلَ الحَسَنُ إِلَى المَدِينَةِ.

لَمَّا صَارَ الأَمْرُ لِمُعَاوِيَةَ وَأَصْبَحَ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ [استَكْثَرَ طُعْمَةَ مِصْرَ لِعَمْرٍ مَا عَاشَ وَرَأَى عَمْرُو أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ قَدْ صَلَحَ بِهِ وَبِتَدْبِيرِهِ وَعَنَائِهِ وَسَعْيِهِ فِيهِ، وَظَنَّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ سَيَزِيدُهُ الشَّامَ مَعَ مِصْرَ، فَلَمْ يَفْعَلْ مُعَاوِيَةُ، فَتَنَكَّرَ عَمْرُو لِمُعَاوِيَةَ فَاخْتَلَفَا وَتَغَالَظَا وَتَمَيَّزَ النَّاسُ وَظَنُّوا أَنَّهُ لاَ يَجْتَمِعُ أَمْرُهُمَا، فَدَخَلَ بَيْنَهُمَا مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْجٍ فَأَصْلَحَ أَمْرَهُمَا، وَكَتَبَ بَيْنَهُمَا كِتَاباً وَشَرَطَ فِيهِ شُرُوطاً لِمُعَاوِيَةَ وَعَمْرٍ خَاصَّةً وَلِلنَّاسِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ لِعَمْرٍ وِلاَيَةَ مِصْرَ سَبْعَ سِنِينَ، وَأَنَّ عَلَى عَمْرٍ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِمُعَاوِيَةَ، وَتَوَاثَقَا وَتَعَاهَدَا عَلَى ذَلِكَ، وَأَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِهِ شُهُوداً. ثُمَّ مَضَى عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى مِصْرَ وَالِياً عَلَيْهَا،

وَذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَـلاَثِينَ، فَوَاللَّـهِ مَا مَكَثَ بِهَـا إلاَّ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً حَتَّى مَاتَ][1].

وَفَاةُ عَمْرِو بنِ العَاصِ

لَمَّا احْتُضِرَ عَمْرُو بنُ العَاصِ، نَظَرَ إلىَ صَنَادِيقَ، فَقَالَ: مَنْ يَأْخُذُهَا بِمَا فِيْهَا؟ يا لَيْتَـهُ كَانَ بَعْـراً، ثُمَّ أَمَـرَ الحَـرَسَ، فَأَحَاطُوا بِقَصْرِهِ. فَقَالَ بَنُوهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: مَا تَرَوْنَ هَذَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئاً[2].

قَالَ مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْجٍ: عُدْتُ عَمْرَو بنَ العَاصِ وَقَدْ ثَقُلَ فَقُلْتُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَذُوبُ وَلاَ أَثُوبُ وَأَجِدُ نَجْوِي أَكْثَر مِنْ رُزْئِي، فَمَا بَقَاءُ الكَبِيرِ عَلَى هَذَا[3]؟

قَـالَ عَمْرُو بـنُ العَـاصِ: عَجَبـاً لِمَـنْ نَزَلَ بِهِ المَـوْتُ وَعَقْلُـهُ مَعَهُ كَيْفَ لاَ يَصِفُهُ؟ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ المَوْتُ، ذَكَّرَهُ ابْنُهُ

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ج ٤ القسم الثاني ص ٥ و ٦.
يلاحظ الخطأ في التاريخ فإنه في هذا التاريخ كان علي لايزال هو الخليفة ولم يتجاوز لقب معاوية بعد الإمارة، ولايزال سلطانه محصوراً في الشام ومصر.
(٢) ابن عساكر ١٣/ ٢٦٧.
(٣) ابن سعد. ج ٤ القسم الثاني ص ٧.

بِقَوْلِهِ، وَقَالَ: صِفْهُ. قَالَ: يَا بُنَيَّ! المَوْتُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُوصَفَ، وَلَكِنِّي سَأَصِفُ لَكَ، أَجِدُنِي كَأَنَّ جَبَلَ رَضْوى عَلَى عُنُقِي، وَكَأَنَّ فِي جَوْفِي شَوْكَ السُّلاء، وَأَجِدُنِي كَأَنَّ نَفسِي يَخْرُجُ مِنْ إبْرَةٍ[1].

وَقَالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ حِينَ احْتُضِرَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرتَ بِأُمُورٍ، وَنَهَيْتَ عَنْ أُمُورٍ، تَرَكْنَا كَثِيراً مِمَّا أَمَرْتَ، وَرَتَعْنَا فِي كَثِيرٍ مِمَّا نَهَيْتَ اللَّهُمَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. ثُمَّ أَخَذَ بِإِبْهَامِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَهْلِكُ حَتَّى فَاضَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

جَزِعَ عَمْرُو بنُ العَاصِ عِنْدَ المَوْتِ جَزَعاً شَدِيداً، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: مَا هَذَا الجَزَعُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُدْنِيكَ وَيَسْتَعْمِلُكَ! قَالَ: أَيْ بُنَيْ! قَدْ كَانَ ذَلِكَ، وَسَأُخْبِرُكَ، إِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَحُبَّاً كَانَ أَمْ تَأَلُّفاً، وَلَكِنْ أَشْهَدُ عَلَى رَجُلَيْنِ أَنَّهُ فَارَقَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُمَا، ابْنُ سُمَيَّةَ[3]، وَابْنُ أُمِّ عَبْدٍ[4]. فَلَمَّا جَدَّ بِهِ، وَضَعَ يَدَهُ مَوْضِعَ الأَغْلاَلِ مِنْ ذَقْنِهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَمَرْتَنَا فَتَرَكْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِبْنَا،

---

(١) ابن سعد.

(٢) ابن عساكر.

(٣) يقصد عمار بن ياسر، وأمه سمية.

(٤) يقصد عبد الله بن مسعود، وأمه هي أم عبد.

وَلاَ يَسعُنَا إِلاَّ مَغْفِرَتُكَ، فَكَانَتْ تِلْكَ هِجِّيرَاهُ حَتَّى مَاتَ[1].

وَلَمَّا ثَقُلَ قَالَ لِصَاحِبِ شُرَطَتِهِ: أَدْخِلَ وُجُوهَ أَصْحَابِكَ، فَلَمَّا دَخَلُوا نَظَرَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: هَا قَدْ بَلَغْتُ هَذِهِ الحَالَ، رُدُّوهَا عَنِّي، فَقَالُوا: مِثْلُكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ يَقُولُ هَذَا؟ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي لاَ مَرَدَّ لَهُ. قَالَ: قَدْ عَرَفْتُ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَتَّعِظُوا، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى مَاتَ[2].

وَقِيلَ: لَمَّا كَانَ عَمْرُو بنُ العَاصِ فِي سِيَاقَةِ المَوْتِ حَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الحَائِطِ يَبْكِي طَوِيلاً، وَابْنُهُ يَقُولُ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ بِكَذَا؟ قَالَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَبْكِي وَوَجْهُهُ إِلَى الحَائِطِ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ إِلَيْنَا فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَعُدُّ عَلَيَّ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلاَثٍ: قَدْ رَأَيْتُنِي مَا مِنَ النَّاسِ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ اسْتَمْكِنَ مِنْهُ فَأَقْتُلُهُ، فَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الطَّبَقَةِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ فِي قَلْبِي فَأَتَيْتُ

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، وابن عساكر ١٣/ ٢٦٩.
(٢) ابن عساكر ١٣/ ٢٦٩.

رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لأُبَايِعَهُ فَقُلْتُ: ابْسُـطْ يَمِينَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَبسَطَ يَدَهُ ثُمَّ إِنِّـي قَبَضْـتُ يَدِي فَقَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْـرُو؟ قَالَ: فَقُلْـتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَـرِطَ، فَقَالَ: تَشْتَرِطُ مَاذَا؟ فَقُلْتُ: أَشْتَرِطُ أَنْ يُغْفَرَ لِي، فَقَالَ: أَمَـا عَلِمْـتَ يَا عَمْرُو أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ فَقَدْ رَأَيْتُنِي مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَنْعَتَهُ مَا أَطَقْتُ لأَنِّـي لَمْ أَكُنْ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنِي إِجْلاَلاً لَهُ فَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الطَّبَقَةِ رَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ. ثُمَّ وُلِّينَا أَشْيَاءَ بَعْدُ فَلَسْتُ أَدْرِي مَا أَنَا فِيهَا أَوْ مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَلاَ تَصْحَبْنِي نَائِحَـةٌ وَلاَ نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَناً، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ قَبْرِي فَامْكُثُـوا عِنْدَ قَبْرِي قَدْرَ مَا يُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا فَإِنِّي أَسْتَأْنِسُ بِكُمْ حَتَّى أَعْلَمَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَـاصِ: إِنَّ أَبَاهُ أَوْصَـاهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مِتُّ فَاغْسِلْنِي غَسْلَةً بِالمَـاءِ، ثُمَّ جَفِّفْنِـي فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ اغْسِلْنِي الثَّانِيَةَ بِمَاءٍ قَرَاحٍ ثُمَّ جَفِّفْنِي فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ

---

(١) ابن سعد.

اغْسِلْنِي الثَّالِثَةَ بِمَاءٍ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ كَافُورٍ ثُمَّ جَفِّفْنِي فِي ثَوْبٍ، ثمَّ أَلْبِسْتَنِي الثِّيَابَ فَأَزِّرَ عَلَيّ فَإِنِّي مُخَاصَمٌ، ثُمَّ إِذَا أَنْتَ حَمَلْتَنِي عَلَى السَّرِيرِ فَامْشِ بِي بَيْنَ المِشْيَتَيْنِ وَكُنْ خَلْفَ الجِنَازَةِ فَإِنَّ مُقَدَّمَهَا لِلْمَلاَئِكَةِ وَخَلْفَهَا لِبَنِي آدَمَ، فَإِذَا أَنْتَ وَضَعْتَنِي فِي القَبْرِ، فَسُنَّ عَلَيَّ التُّرَابَ سَنّاً. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَأَضَعْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِبْنَا، فَلاَ بَرِيْءٌ فَأَعْتَذِرُ، وَلاَ عَزِيزٌ فَأَنْتَصِرُ، وَلَكِنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، وَمَازَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَاتَ[١].

وَتُوفِّيَ عَمْرُو بنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِمِصْرَ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ[٢]. وَتَرَكَ أَمْوَالاً كَثِيرَةً.

تُوفِّيَ لَيْلَةَ عِيدِ الفِطْرِ، وَعُمْرُهُ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، فَكَانَ عُمْرُهُ يَومَ صِفِّينَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَهُوَ يَقُودُ الكَتَائِبَ، وَيُعَدُّ أَقْوَى رِجَالِ مُعَاوِيَةَ وَأَعْرَفَهُمْ بِأُمُورِ الحَرْبِ يَوْمَذَاكَ. وَبَلَغَ الثَّانِيَةَ وَالثَّمَانِينَ يومَ التَّحْكِيمِ وَمَعَ هَذَا فَالصُّورَةُ فِي ذِهْنِ النَّاسِ أَنَّه أَصْغَرُ مِنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ بِسَبَبِ أَخطَاءِ المُؤَرِّخِينَ[٣].

---

(١) ابن سعد، وابن عساكر.
(٢) وذكر غير ذلك دون دليل، وما أثبتناه هو الصحيح، والله أعلم.
(٣) انظر الطبقات لابن سعد، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير.

عَمْرُو بنُ العَاصِ

كَانَ عَمْرُو قَصِيراً.

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ابنَا العَاصِ مُؤْمِنَانِ عَمْرُو وَهِشَامُ»[1].

- وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَمْرُو بنُ العَاصِ مِنْ صَالِحِي قُرَيْشٍ، نِعْمَ أَهْلُ البَيْتِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَأُمُّ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَبْدُ اللَّهِ»[2].

- وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْلَمَ النَّاسُ، وَآمَنَ عَمْرُو بنُ العَاصِ»[3].

رَوَى عَمْرُو بنُ العَاصِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِينَ حَدِيثاً مَعَ المُكَرَّرِ. اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ عَلَى ثَلاثَةِ أَحَادِيثَ مِنْهَا. وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيثٍ، وَمُسْلِمُ بِحَدِيثَيْنِ.

- قَالَ قَبِيصَةُ بنُ جَابِرٍ: قَدْ صَحِبْتُ عَمْرَو بنَ العَاصِ، فَمَا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٠٤ و ٣٢٧ و ٣٥٣، وابن سعد ٤/ ١٩١، والحاكم ٣/ ٢٤٠ و ٤٥٢ وابن عساكر ١٣/ ٢٥٢.
(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٦١، والترمذي ٣٨٤٥، وابن عساكر ١٣/ ٢٥٣.
(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٥ والترمذي ٣٨٤٤.

رَأَيْتُ رَجُلاً أَبْيَنَ أَوْ أَنْصعَ رَأْياً، وَلاَ أَكْرَمَ جَلِيساً مِنْهُ، وَلاَ أَشْبَهَ سَرِيرَةً بِعَلاَنِيَةٍ مِنْهُ.

وَقَالَ الشَّعَبِيُّ: دُهَاةُ العَرَبِ أَرْبَعَةٌ: مُعَاوِيَةُ، وَعَمْرُو، وَالمُغِيرَةُ، وَزِيَادُ. أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَلِلأَنَاةِ وَالحِلْمِ، وَأَمَّا عَمْرُو فَلِلْمُعْضِلاَتِ، وَالمُغِيرَةُ لِلْمُبَادَهَةِ، وَأَمَّا زِيَادُ فَلِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ.

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ عَنْ عَمْرٍو: وَكَانَ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ رَأْياً، وَدَهَاءً، وَحَزْماً، وَكَفَاءَةً، وَبَصَراً بِالحُرُوبِ، وَمِنْ أَشْرَافِ مُلُوكِ العَرَبِ، وَمِنْ أَعْيَانِ المُهَاجِرِينَ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ وَيَعْفُو عَنْهُ، وَلَوْلاَ حُبُّهُ لِلدُّنْيَا وَدُخُولُهُ فِي أُمُورٍ، لَصَلُحَ لِلْخِلاَفَةِ، فَإِنَّ لَهُ سَابِقَةً لَيْسَتْ لِمُعَاوِيَةَ، وَقَدْ تَأَمَّرَ عَلَى مِثْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، لِبَصَرِهِ بِالأُمُورِ وَدَهَائِهِ.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصِيحاً. فَكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا رَأَى رَجُلاً يَتَلَجْلَجُ فِي كَلاَمِهِ قَالَ: خَالِقُ هَذَا وَخَالِقُ عَمْرِو بنِ العَاصِ وَاحِدٌ.